السفير
الكتاب الجميل
١٧١

إيفان تورغينيف

مدونة ابو عبدو

من مذكرات صياد

ترجمة
د. حياة شرارة

دار الآداب للإعلام والثقافة والفنون

5805

الكتاب للجميع

إيفان تورغينيف

من مذكرات صياد

ترجمة

د. حياة شرارة

طبعة خاصة
توزّع مجاناً مع جريدة (السفير)

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
٢٠١٦

مجاناً مع جريدة السفير
تصدر عن شركة السفير ش.م.ل.

■ السفير

رئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: احمد طلال سلمان
المدير المسؤول: غاصب المختار

الكتاب للجميع

■
التحرير والإدارة: شارع منيمنة / الحمراء/ بيروت
فاكس ٠١٣٥٠٠٠٥ - ٠١٧٤٣٦٠١
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http: //www.assafir.com
Coordinator@assafir.com

- تمّت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٩٦١+١٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة والتحرير

فخري كريم

بيروت - الحمراء - شارع لبون - بناية منصور
الطابق الأول - تلفاكس: 752616 - 752617
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: 8272 أو 7266 - تلفون:
2322275 - 2322276 - فاكس: 2322289

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366.
Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة 102 - زقاق 13 - بناء 141
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تمهيد

من نافلة القول الإشارة إلى أهمية الأدب الروسي والمنزلة الرفيعة التي يحتلها بين الآداب العالمية، فقد بات ذلك من المسلمات التي حظيت بإجماع القرّاء والأدباء والنقّاد.

لقد أفضى الاهتمام بالأدب الروسي إلى ظهور عدة ترجمات لروائعه باللغة العربية معظمها منقولة عن الفرنسية أو الإنكليزية. توخّى بعض المترجمين الدقة والأمانة، وعزف بعضهم عنها مقتصرين على نقل الأعمال الأدبية نقلًا حرًّا ما دام القارئ به توق للاطلاع عليها وشوق للاستمتاع بقراءتها.

استعملنا في الترجمة الطبعة الصادرة في موسكو بين ١٩٥٤ – ١٩٥٨ عن دار الأدب الفني التي اعتمدت على الطبعة الأخيرة لأعمال الكاتب عام ١٨٨٣ وكان تورغينيف قد قام بتنقيح معظم أجزائها وإدخال بعض التعديلات على أسلوبها، تقع هذه الطبعة في إثني عشر جزءا"، و لم يُتّبع التسلسل الزمني في ترتيب أجزائها، وإنما صُنّفت حسب المواضيع، فالجزء الأول يحتوي على «مذكرات صياد» ثم تأتي الروايات بعد ذلك. يضم الجزء الثاني روايتين «رودين» و«عش النبلاء» أمّا الثالث فيضمّ رواية: «في العشية» و«الآباء والبنون». والرابع يتألف من: «الدخان» و«الأرض البكر». وتحتوي الأجزاء الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة على قصص طويلة

وقصيرة، مجموعة من القصائد النثرية، بينها بعض قصصه المنشورة مثل «آسيا» و«الحب الأول» و«مياه الربيع»، يحتوي الجزء التاسع على مشاهد وكوميديا والعاشر على أشعار ومذكرات أدبية وبعض التراجم والحادي عشر على مقالات في النقد والأدب، أما الجزء الثاني عشر فيتكون من مجموعة رسائل توغينيف إلى الأدباء والأصدقاء والمعارف.

كان بودّنا استخدام نص الطبعة الأكاديمية لأعمال تورغينيف التي ابتدأ طباعتها في عام ١٩٦٠ وانتهى ١٩٦٩ لكنها لم تتوافر لدينا، ومع ذلك استطعنا الإطلاع عليها في جامعة لندن وتصوير ما يمكن الاستفادة منه في الترجمة، ولم نجد لدى التحقيق من فرق بين الطبعتين سوى سطر منفصل عن الآخر، بينما هو يتصل في حالات قليلة من الطبعة التي بين أيدينا ولا يكتب في سطر منفرد.

هذا إلى أن الطبعة الأكاديمية جاءت على التسلسل الزمني، فيحتوي الأول منها على قصائد تورغينيف وتعليقاته الأولى (١٨٣٤ – ١٨٤٢) وتحتل «مذكرات صياد» الجزء الرابع منه. وبلغ مجموع أجزائها أربعة عشر، ويرجع سبب الزيادة في الأجزاء إلى وفرة الشروح وكثرة المقارنات مع الطبعات السابقة.

ولا بد من توضيح معنى بعض الكلمات ليكون القارئ على علم بها إذا لم تكن له معرفة سابقة، فقد تفضي به إلى نوع من الحيرة أو إبهام المعنى.

ترد أحيانا" عبارة ملّاك فقير أو أمير أو نبيل فقير، ولا ريب أن مثل هذه العبارة تنطوي على شيء من الغرابة، أو ربما يبدو أن المترجم تقيد نقل النص حرفيا" مما جعله ينافي الذوق والتعبير السليم. جاء مثلا" في

قصة «تاتيانا بوريسوفنا وابن أخيها» أنها «ولدت من أبوين ملّاكين فقيرين جدا" » أو أن الأمير خلوباكوف في قصة «ليبديان» لا يمتلك شيئا" ويعيش في كنف أشخاص آخرين إلخ.

وتفسير ذلك أن لقب أمير أو ملّاك أو نبيل يأتي من الانحدار الطبقي للعائلة والسلم الطبقي للدولة القيصرية الذي يحتوي على فئات ورتب وألقاب تبدأ متدرّجة من قمة الهرم الاجتماعي إلى أسفله. وإذا فقد النبيل ثروته فإنه يظل يحمل لقب النبيل، وقد شهد القرن التاسع عشر تدهور الوضع المادي لكثير من الملّاكين والنبلاء ووصوله إلى هاوية الإفلاس والخراب. صوّر تورغينيف تلك الشخصيات في «مذكرات صياد» مثل شخصية بيوتر بيتروفيتش كاراتايف.

يكثر تورغينيف من تكرار كلمة معينة قد ترد مرتين أو ثلاث في جمل متتالية، مثل كلمة فجأة، التي له شغف ظاهر بها، أو ببطء، مرة أخرى، كأن وغيرها. ولنأخذ مثلا" على ذلك كلام أوفسيانيكوف في قصة «المالك المعتوق أو فسيانيكوف» «أقول لك أن بعض الأشياء كانت أفضل حقا»، كان العيش أهدأ، والقناعة أكثر، بالضبط .... ومع ذلك، فالآن أفضل، وأطفالكم سيكونون بوضع أفضل، بعون الله».

وكنا لدى الترجمة نبقي على الأغلب، الكلمة المكررة، أو نستعمل بعض الكلمات المرادفة لها مرة أخرى، فنستعمل بدل فجأة، بغتة، أو على حين غرة حسب ما تمليه علينا طبيعة النص.

يستخدم الكاتب أحيانا" الجمل المفكّكة ولا سيما في الحوار والعبارات غير المكتملة أو المتقطعة وقد تصرفنا في الترجمة حسب

مقتضى النص، فأبقيناه على ما هو عليه عندما يظل معناه جليا" بيّنا"، وحاولنا التخفيف من العبارات غير المترابطة أحيانا". كانت الترجمة صعبة حقا" في مثل تلك الحالات، وأخص بالذكر هنا قصة «طبيب المنطقة» التي يرويها الطبيب نفسه.

أبقينا الكلام بنصه الفرنسي أو الألماني الذي يستعمله الأبطال في حديثهم أحيانا" وكتبنا ترجمته العربية، حرصا" منا على نقل أسلوب الكاتب بمميزاته وخصائصه. وأبقينا أيضا" على الكلمات المحلية المتداولة في منطقة أوريول التي عاش فيها الكاتب، واستخدمها في أسلوبه مثل كلمة «بيريوك» ونقلنا الشروح التي وضعها لبعض الكلمات الأخرى، و لم نقم بحذفها.

استعملنا الكلمات الروسية للمسافات أو الأوزان مثل ديساتين، فيرست، أرشين وغيرها ووضعنا في الحواشي شرحا "لما يقابلها بالمترات أو الكيلوغرامات لأن ترجمتها إلى المسافات والأوزان التي نعرفها تقتضينا أحيانا" الدخول في عمليات حسابية من جمع وضرب لمعرفة الناتج.

أبقينا أحيانا "على الكلمات الروسية لكبار الإقطاعيين أو النبلاء مثل كلمة «فيلموجا» لأن مثل تلك الكلمة وغيرها يراد بها التعبير عن فئات إجتماعية كانت صاحبة النفوذ والسطوة في فترة تاريخية معينة ولا يمكن أن نجد مرادفا" لها بالعربية. لقد اعتدنا على سماع الكلمات الإنكليزية مثل كونت وبارون وغيرها ولكن التسميات الروسية لا زالت غير مألوفة لقلة الترجمة عن اللغة الروسية في الماضي.

كتبنا بعض الحروف التي لم يتّفق حتى الآن على شكل معين

لكتابتها وهي الحروف الإنكليزية —v، p، ch، g عندما لا تلفظ كالجيم – والتي لها نظيرها بالروسية، بالشكل التقليدي، وأعني به v ف، p ب وch تش g – غ ولو أن من المترجمين من أخذ يكتبها ق، پ وچ وگ قاصدين الوضوح والتحديد لها.

وضعنا هوامش للاسماء والقصائد والعبارات التي تحتاج إلى شيء من التوضيح والتعريف، واستعنا في كتاباتها بشروح الطبعة الأكاديمية بشكل خاص، والموسوعة السوفياتية، وبعض المصادر الأخرى.

كتبنا كذلك موجزا" لحياة تورغينيف وأعماله، استقينا مادتها من كتب تاريخ الأدب الروسي وبعض الكتب الإنكليزية «لمذكرات صياد».

نود أخيرا" الإشارة إلى أهمية كتاب «مذكرات صياد» وما لاقاه صاحبه من تعنّت السلطة وترحيب الأوساط الثقافية. فقد أحدث صدوره ضجة أدبية كبرى ودويّا" إجتماعيا". نظر إليه ي. بي. فولكوف، رقيب المطبوعات بعين الغضب وكتب عنه تقريرا" سيئا" لما ينطوي عليه من أفكار مناهضة للنظام القائم و لم يجده صالحا" للنشر، لكن الأمير ف. لفوف وافق على صدوره فما كان من القيصر نيكولاي الأول إلا أن أصدر أمرا" بإعفائه من منصبه، إن نشر «مذكرات صياد» في «سفريمنيك» كان أحد الأسباب الخفية لاعتقال تورغينيف، رغم أن الحجة الأساسية كانت كتابته مقالا" عن وفاة غوغول، حيث أجّج الكتاب غضب السلطات القيصرية ووجدته ينطوي على الكراهية والبغضاء للبناء الاجتماعي القائم.

من المعروف أن «مذكرات صياد» كانت مواصلة لنهج غوغول،

مؤسس المدرسة الطبيعية، في تصوير الحياة الراكدة في الريف التي تجلّت في روايته «الأرواح الميتة»، لكن تورغينيف لا ينحو نحواً ساخراً في كتابته، ولا يقتصر على إظهار النماذج التي اعتراها الصدأ ودبّ فيها الإنحلال والموت، وإنما يكشف الصفات الخلقية السامية لدى الفلاحين وحب الطبيعة والروح الشاعرية التي يتّسمون بها. إن خور في «خور وكالينيتش» له عقلية عملية وفكر ثاقب، لذلك استطاع أن يدبّر أموره المعيشية أما صديقة كالينيتش فهو رومانتيكي النزعة وبعيد عن التفكير العملي في حياته، لكنه ذو روح طاهرة نقية. تنطوي شخصية كاسيان في «كاسيان من الأرض الجميلة» على روح عاطفية وتفكير متأمل عميق في جبروت الله وعظمة الطبيعة. إن النظام العبودي يفضي إلى ضياع أولئك الفلاحين وتبديد إمكاناتهم هباءً من دون أن تؤتي ثمارها.

تنطوي جوانح بعض الملّاكين في «مذكرات صياد» على مشاعر الحسناة وحب الخير والمشاعر الرقيقة إذا استطاع شطر من الملّاكين، شأنهم شأن الفلاحين، الاحتفاظ بقواهم العاطفية والتحلّي بروح الخير وحب الناس. إن بيوتر كاراتايف يضحّي بكل ما يملكه في سبيل الفلاحة الممتلكة التي يحبها، وتتسم تايتانا بوريسوفنا بالحسناة والبساطة والوداعة وتتميز شخصيتها بالترفع عن التفاهات رغم عيشها لمدة طويلة في الريف الذي يحد الفكر في أطر ضيّقة ومحدودة.

ينطوي الكتاب على نماذج بشرية عديدة، لا نستطيع الوقوف عليها جميعاً لكننا نود أن نشير إلى تصويره لمعاناة الفئة المثقفة في «هاملت من منطقة شيغروفسكي» وهو صورة لمجموعة واسعة من المثقفين الروس الذين درسوا في الخارج واطلعوا على الفلسفة الألمانية

وأعجبوا خصوصاً بفلسفة هيغل، لكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا الواقع الروسي ولا أن يطبّقوا أفكارهم الجريئة المتفائلة، مما جعلهم يشعرون بالضياع والخواء الروحي بل وحتى الفكريّ والعزلة عن كل ما يحيطهم. وتأخذ مأساتهم لوناً تراجيدياً قوياً لأنهم، وهم الفئة المتنورة المثقفة، لم يقدروا على إيجاد مكان لهم في الحياة الروسية، ناهيك عن أداء دورهم ورسالتهم فيها.

أما عن الترحاب الذي قوبلت به «مذكرات صياد» فقد حيا، لدى نشرها، نيكرا سوف والنقاد الروس عبقرية تورغينيف، وتوسّموا فيه كاتباً خلاقاً سيكون له شأن كبير في الحياة الأدبية. وبقي الترحاب متصلاً حتى أيامنا هذه.

أبدى النقاد الغربيون اهتمامهم «بمذكرات صياد» وما زال هذا الكتاب موضع اهتمامهم ودراستهم حتى يومنا الحاضر ومنهم من رأى فيه دليلاً لا يقبل الشك على نبوغ الكتاب وإمكاناته الفنية، فقد قال إدوار غارنين[1]:

«على الرغم من أن صور تورغينيف عن العبودية، قد هزت المجتمع الروسي هزة عميقة، فإنها كانت في الحقيقة انتصار الفنان الخالص والكاتب الذي رأى حياة الإنسان الزائلة في علاقتها مع دراما الطبيعة الواسعة الشاملة، وهذا ما جعل «مذكرات صياد» مقبولة لدى الجميع».

١- تورغينيف: دراسة. لندن ١٩١٧. ص ٣٩ ١٩٨١

وقال ج . أ. لويد[٢] إن «تورغينيف قد أبدع في مذكرات صياد» للأقنان الروس ما أبدعته مؤلفة «كوخ العم توم» للعبيد الأمريكيين ..» لا نود الإطالة في الحديث عن القصص، فهي بين يدي القارئ ويستطيع أن يقومها بنفسه، لأنها تنطوي على جوانب كثيرة ليست بها حاجة إلى التعليق والملاحظة ولا سيما تصوير تورغينيف الرائع للطبيعة، حيث تجلت عبقريته في رسم لوحاتها وظلالها المتنوعة وتأثيرها الكبير في شخوص القصص وفي الكاتب نفسه.

المترجمة

٢- إيفان تورغينيف - لندن ١٩٤٢ - ص. ١٤

خور وكالينتش

إذا اتّفق لإمرئ أن يسافر من منطقة فولخوف إلى جيزدرا، فلا محالة أن يغشاه شعور بالدهشة من التباين الشديد بين أجناس الناس في محافظة أورلوف وكالوجا. الفلاح الأورلوفي قصير القامة محدودب قليلا"، متجهم، عبوس النظرة، يحيا في أكواخ قذرة مصنوعة من خشب الحور، ألف العمل بالسخرة، لا يمتهن التجارة، غذاؤه رديء، ينتعل حذاءا" من الليف، بينما الفلاح الكالوجاي يتلقى أجرا" أو حصة لقاء عمله، يسكن في أكواخ من أخشاب الصنوبر، طويل القامة، تلوح عليه أمارات الإقدام والمرح، نظيف الوجه ناصعة، يتجر بالشحم والقطران، يلبس الجزمة في الأعياد.

تمتد القرية الأورلوفية (وأنا أتحدث عن القسم الشرقي من محافظة أورلوف) عادة بين الحقول المحروثة قرب مسيل تحول بطريقة ما إلى بركة موحلة. إنك لا ترى على مسافة فيرست شجرة واحدة، ما خلا بعض الصفصاف المتأهب لإسداء العون دائما"، إضافة إلى اثنتين أو ثلاث من أشجار البتولا العجاف، الأكواخ تحتشد إلى جانب بعضها بعضا"، السقوف مغطاة بالقش العفن وعلى النقيض منها القرية الكالوجية، فالشطر الأعظم منها تحفه الغابات، الأكواخ أكثر إستقلالا" عن بعضها الآخر واكثر استقامة، سقوفها من ألواح الخشب، البوابات يمكن إغلاقها بإحكام، لم يتداع أو يتهاو السياج المضفور من الأغصان حول الفناء، ولا يفسح مجالا" لدخول أي

خنزير عابر. إن القنص أفضل للصياد في محافظة كالوجا. فالغابات الأخيرة والبلوشدايا[٣] ستتوارى في محافظة أورلوف بعد مضي أعوام خمسة، بينما أصبحت المستنقعات أثراً بعد عين، أما في كالوجا فالوضع مختلف تماماً، إذ تترامى الغابات على امتداد مئات الفيرسات والمستنقعات على عشرات منها، لم يختف بعد الطيهوج، ذلك الطائر النبيل، والشنقب الأنيس وافر، والكروان الصاخب يثير السرور والوجل لدى كل من الصياد والكلب، في أثناء تحليقه المندفع.

عرجت على منطقة جيزدرا بصفتي صياداً، هبطت إلى الحقل وتعرفت على بولوتيكين، وهو ملّاك صغير في كالوجا، وكان صياداً متحمساً، وبالتالي إنساناً ممتازاً. حقاً إنه ينطوي على بعض نقاط الضعف: لقد خطب مثلاً كل الفتيات الثريات في المحافظة وتلقّى رفضهن وإنكارهن عليه التردد على بيوتهن. أسر أحزانه بقلب محطّم إلى كل أصدقائه ومعارفه، بيد أنه واصل إرسال الهدايا لآباء الفتايات كالدراق الحامض وغيره من المنتوجات الفجّة في حديقته، كان شغوفاً بتكرار النكتة نفسها، ورغم رأي بولوتيكين الرفيع في جودتها فإنها لم تقدر على إثارة الضحك لدى أحد قط. كان يثني على أكيم ناخيوف وقصة بيتاً، ولا يخلو كلامه من لكنة ويسمي كلبه أسترونوم، ولكن يقول مهما يكن، وقد جلب مطبخاً فرنسياً إلى بيته ينطوي سره — حسب مفهوم طباخه — على تغييره التام للمذاق المألوف لكل طبق من أطباق الطعام: فاللحم، لدى هذا المطبخي الحاذق يصبح سمكاً، والسمك فطراً وتتحول المعكرونة إلى مسحوق، زد على ذلك أنه

٣- تسمى الشجيرات الوافرة المتراصة الكبيرة في محافظة أورلوف «بلوشدايا» وتتميز اللهجة الأورلوفية عموماً بأصولها المتنوعة، فتارة تكون رقيقة للغاية وتارة تنطوي على كلمات وتراكيب قبيحة نوعاً ما. (ملاحظة الكتاب)

لا ترمى ولو جزرة واحدة في الحساء إذا لم تمتلك شكل المعين أو شبه المنحرف. وما خلا هذه العيوب القليلة الطفيفة فإن السيد بولوتيكين، كما أسلفت، امرؤ ممتاز.

دعاني السيد بولوتيكين في اليوم الأول لتعارفنا نفسه، إلى قضاء الليلة عنده، واستطرد قائلا" – يبعد مكاني خمسة فيرسات من هنا، وهي مسافة بعيدة لقطعها مشيا" على الأقدام، لنعرج بادئ الأمر على خور. (ليسمح لي القارئ إغفال لكنته).

ومن هو خور؟

أحد الفلاحين .... يعيش على مسافة قريبة من هنا.

يممنا وجوهنا إليه. قام مسكن خور، المنعزل في مرج فسيح وسط الغابة. قد تكوّن من بضعة هياكل خشبية جمعت بينها الأسيجة. وبرزت أمام العزبة الرئيسة سقيفة استندت إلى أعمدة دقيقة. دخلنا إليها. استقبَلنا شاب فتيّ طويل وسيم الطلعة، عمره يناهز العشرين سنة.

سأل السيد بولوتيكين – أها، فيديا! هل خور في الدار؟؟

أجاب الشاب وافترّ ثغره عن ابتسامة كشفت عن صف من الأسنان البيض كالثلج – كلا، لقد ذهب إلى المدينة، هل تأمرون بإعداد العربة؟

أجل، أيها الأخ، هيّء العربة. وهات لنا شيئا" من الكفاس.

دخلنا إلى الكوخ، لم نعثر فيه ولو على صورة واحدة من النوع المصنوع في سوزدل – ملصقة على الجدران النظيفة المشرقة، بينما

اتّقد مصباح صغير في الركن أمام أيقونة ثقيلة يحيطها إطار فضي، وقد مُسحت المنضدة المصنوعة من خشب الزيزفون ونُظّفت توّاً"، لم تتجول بنات وردان الخفيفة الحركة بين العوارض الخشبية وأطر النوافذ، و لم تختف الصراصير المتروية. سرعان ما عاد الشاب الفتي بإبريق أبيض كبير مليء بالكفاس الجيد مع كمية كبيرة من الخبز وجفنة خشبية تحتوي على دزينة من الخيار المملح. وضع كل هذه المقبلات على المنضدة واتكأ على الباب وشرع ينظر والإبتسامة لا تفارق وجهه وما كدنا نصيب شيئاً" من الطعام حتى قرقعت العربة أمام الباب. خرجنا. جلس صبيّ حوذيّ، له من العمر أربعة عشر عاماً"، أجعد الشعر، أحمر الوجنتين بذل قصارى جهده للإمساك بجواد أبلق شعبان. أحاط العربة حوالي ستة عمالقة شباب يشبه بعضهم بعضاً" ويشبهون فيديا أيضاً". علّق بولوتيكين قائلاً" «كلهم ابناء خور!» «أضاف فيديا معلّقاً"، وقد خرج في أعقابنا إلى سقيفة الباب: كلهم أولاد خور، ولكن لم يكتمل عقدهم بعد، أن بوتاب في الغابة وسيدور مضى مع خور العجوز إلى المدينة ... واسترسل في كلامه موجهاً" إياه إلى الحوذي: «أنظر يا فاسيا واعلم أنك تُقل السيد، احترس وسر الهوينى في الطريق الوعر، وإلا أتلفت العربة وآذيت معدة السيد» ! ضحك ابناء خور لظرافة فيديا. هتف السيد بولوتيكين بأبهة «اجلسوا أسترونوم» ! رفع فيديا– بشيء من الإرتياح – الكلب المبتسم ابتسامة مغتصبة إلى الهواء وأجلسه على أرضية العربة. أطلق فاسيا عنان الجوادين ومضينا».

قال لي السيد بولوتيكين على حين غرة «هذا هو مكتبي، مومىء" إلى دار صغيرة واطئة، أتود أن نعرّج عليه؟».

بكل سرور.

قال وهو يترجل «ومع أنه لا يستعمل الآن، لكنه يستحق أن نلقي عليه نظرة».

المكتب مؤلف من غرفتين خاويتين، هرع إلينا من الفناء حارس عجوز محني الظهر ورحب بنا.

قال السيد بولوتيكين «طاب نهارك يا ميليايتش، هلّا تأتينا بالماء؟»

توارى العجوز المنحني ثم عاد فورا"، وهو يحمل قنينة ماء وقدحين.

قال بولوتيكين: «جرّب مذاقه، إنه لدي، ماء" زلالا" جيدا" ».

شرب كل منا قدحا"، بينما انحنى لنا العجوز حتى خصره.

علّق صديقي الجديد قائلا" «حسنا"، أخال أننا الآن نستطيع أن نرحل، بعت في هذا المكتب أربع ديساتين من أرض الغابة للتاجر اليلويف بثمن مربح ».

أخذنا أماكننا في العربة وبعد نصف ساعة دخلنا إلى فناء بيت بولوتيكين. سألت بولوتيكين إبّان العشاء «قل لي من فضلك، لماذا يعيش عندك خوراً منفصلا" عن فلاحيك الآخرين؟».

إليك السبب: إنه لفلاح ذكي. لقد احترق كوخه قبل خمسة وعشرين عاما"، فجاء إلى جدي المرحوم وقال: «أرجوك يا نيقولاي كوزميتش أن تسمح لي بالسكن في إحدى مستنقعات غابتك. وسأدفع لك أجرا" جيدا". ولماذا تريد السكن في المستنقع؟».

«هذه بغيتي، ولكن أرجو فقط ألا تكلفني أيها السيد نيقولاي

كوزميتش بأداء أي عمل، واطلب الأجر الذي تريده مني» «أدفع خمسين روبلا" في السنة!».

«شكرا" لك يا سيدي، ولكن أنظر، لا تتوقع أي تخفيض من جانبي» «شكرا"، بدون تخفيض ...» وهكذا قطن المستنقع ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى خور.

سألته – ولكن هل أضحى ميسور الحال؟

أضحى ميسورا"، والآن يدفع لي مئة روبل فضّي بدل إيجار كل سنة، هذا إلى أنني سأرفع – على الأرجح – ثمن الإيجار، قلت له أكثر من مرة: «ابتع حريتك يا خور اشترها! ...» وكان يؤكد بدهائه، إنه لا يستطيع ذلك، لا نقود، لا شيء ...، وكيف يمكن أن يكون على حال أخرى ! ...

بعد تناول الشاي، ذهبنا في اليوم التالي حالا" إلى الصيد. عندما سرنا في القرية أمر السيد بولوتيكين الحوذي بالتوقيف عند كوخ واطئ ونادى عاليا": «كالينتشن !».

تعالى صوت من الفناء: «في الحال أيها السيد، في الحال، إنني ألبس خُفيّ».

مضينا بخطى وئيدة، ولحق بنا خلف القرية امرؤ يناهز عمره الأربعين، طويل القامة، نحيف، ذو رأس صغير مرسل إلى الخلف. هذا هو كالينتش، أحببت منذ الوهلة الأولى وجهه الأنيس الاسمر، الذي لا يخلو من بعض أثار البثور. كان كالينتشن (وكما عرفت فيما بعد) يرافق سيّده كل يوم إلى الصيد، يحمل له الحقيبة، والبندقية أحيانا"،

يراقب مكان سقوط الطير، يحمل الماء، ويجمع التوت الأرضي، يشيد الخص، يعدو خلف العربة، ولا يستطيع السيد بولوتيكين أن يخطو ولو خطوة واحدة بدونه. كان كالينتش امرءاً شديد المرح، دمث الخلق، يترنّم دائما" بصوت خافت، يتلفّت دون اكتراث في كل الأرجاء، يخنّ قليلا" في أثناء كلامه، يبتسم وهو يضيّق عينيه الزرقاوين نوعا" ما، وغالبا"ما يتلمس لحيته الخفيفة الشبيهة بالوتد. لم يكن يغذ السير، ولكن خطاه كانت واسعة، يعتمد بعض الشيء على عصا طويلة دقيقة. تحدث معي في أثناء النهار أكثر من مرة، وقام على خدمتي دون أن يشوب مسلكه التذلل، بينما كان يرعى السيد كالطفل. وعندما اضطرنا قيظ الهاجرة إلى البحث عن مأوى، قادنا إلى عمق الغابة، حيث يحتفظ بعميرة نحل. دعانا كالينتش إلى كوخه المزدان بحزم من الأعشاب الشذية الجافة، ونضّد لنا قشا" طريا" لنضطجع عليه، بينما وضع هو على رأسه شيئا" يشبه الكيس وبه شبكة وأخذ سكينا" وقدرا" وجمرة صغيرة وذهب إلى عميرة النحل ليقطف لنا قرص عسل. رشفنا العسل الدافئ الشفاف كالماء الزلال وغفونا تحت طنين النحل الرتيب وتمتمة الأوراق المهذارة.

أيقظتني هبات من النسيم الخفيف. فتحت عيني ورأيت كالينتش. كان جالسا" عند عتبة الباب المفتوح حتى نصفه، يبري ملعقة بسكينة، استمتعت طويلا" بالنظر إلى وجهة الوديع الصافي كسماء المساء. استيقظ بولوتيكين أيضا"، لكننا لم ننهض حالا". إذ يحسناً، بعد السير الطويل والكرى العميق، الاستلقاء بلا حراك على القش، بينما يسترخي الجسم ويحلم، يتوهّج الوجه من الحرارة الطفيفة وتطبق العيون بتأثير خمول حلو. نهضنا أخيرا" وشرعنا بالتجوال مرة أخرى حتى حلول المساء.

أخذت أتحدث مرة أخرى، في أثناء العشاء عن خور وكالينتش.

قال بولوتيكين: «كالينتش فلاح جيد، دؤوب خدوم، ولكنه لا يستطيع تدبير أمور المزرعة لأنني أصطحبه دائما" معي. فهو يمضي برفقتي كل يوم للصيد. ويمكنك أن تحكم أنت بنفسك، كيف سيكون وضع المزرعة»، شاركته الرأي ثم اضطجعنا لننام.

كان يتعين على بولوتيكين الذهاب إلى المدينة في اليوم التالي بسبب قضية تتعلق بجاره بيتشوكوف. كان بيتشوكوف قد حرث أرض بولوتيكين وجلد امرأة من أقنانه في الأرض المحروثة. وهكذا ذهبت وحدي للصيد وقبيل المساء عرّجت على مكان خور. استقبلني عند عتبة الكوخ عجوز أصلع، قصير القامة، عريض المنكبين، مكتنز البدن، إنه خور بعينه. تطلّعت بفضول إلى خور هذا. فسيماء وجهه تذكرني بسقراط: الطول ذاته، الجبين الناتئ لحد ما، العينان الصغيرتا نفسهما، الأنف الأفطس عينه. دلفنا سويّة إلى الكوخ. قدم لي فيديا مرة أخرى الحليب والخبز الأسود. جلس خور على مقعد، ومسّد بهدوء متناه لحيته الجعداء وشرع يتحدث معي. لاح أنه شاعر بجدارته، كان يتحرك وئيدا" عندما يتحدث وأحيانا" يبتسم من خلال شواربه الطويلة.

تطرقنا في حديثنا إلى الزرع والحصاد وحياة الفلاحين. بدا كما لو كان يشاركني رأيي، وبعد هنيهة فقط غشاني الخجل وشعرت أنني أجانب الصواب ... خُيّل إلي أن ما قلته تشوبه الغرابة. كانت تعابير خور لا تخلو من الاتهام أحيانا"، ومرجع ذلك هو الحذر. وإليكم نموذجا" من حديثنا.

قلت له: «أصغ إلي، يا خور، ما بالك لا تبتاع حريتك من سيدك؟

ولماذا أبتاع حريتي؟ إنني أعرف الآن سيدي وأعرف ما علي من جزية. إن سيدنا امرؤ حسناً.

وأردفت قائلاً": «ومع ذلك فالحرية أفضل».

رمقني خور بنظرة جانبية.

وتمتم – بالتأكيد.

إذن، مالك لا تبتاع حريتك؟

لوّى خور رأسه.

ولكن، ما عساني أفعل كي أبتاع حريتي؟

حسناً"، حسبك أيها الشيخ ما كسبت ...

استرسل في كلامه بصوت خفيض، كما لو كان يتحدث مع نفسه – إذا أضحى خور واحداً" من الأحرار فحتى من لا لحية له سيكون أعلى من خور.

إذن احلق لحيتك.

وما جدوى اللحية؟ اللحية كالعشب، يسهل حلقها.

حسناً"، ماذا سيحدث عندئذ؟

هذا ما سيحدث، سرعان ما سيجد خور نفسه بين التجار. إن حياة التجار رخيّة، وعندهم لحى أيضاً".

سألته – ألا تزاول التجارة أيضا"؟

نتجر قليلا" بالزيت والقطران ... ما رأيك أيها السيد، أتأمر بتجهيز عدة العربة.

حدثت نفسي – «إنك تمسك زمام لسانك بإحكام وأنك لامرؤ فطن».

قلت بصوت عال"، كلا، لا حاجة بي إلى العربة، غدا" سأذهب للقنص في هذه المنطقة، وإذا سمحت، فسأقضي الليلة عندك في عنبر العشب الجاف.

بكل سرور. ولكن أتتوفر لك الراحة في العنبر؟ سآمر النسوة بفرش شرشف ووضع وسادة. نهض من مكانه وصاح: هيا أيتها النساء، هيا إلى هنا ! .... وأنت يا فيديا، اذهب معهن. فالنساء جمهور غبي.

بعد مضي ربع ساعة قادني فيديا بمصباحه إلى العنبر. انطرحتُ على العشب الجاف الشذي، لفَّ كلبي نفسه قرب قدمي، تمنى فيديا لي ليلة سعيدة، أوصد الباب فانصفق، واستبد بي الأرق لوقت طويل. دنت بقرة من الباب وتنفست نفسا" عاليا" مرتين، نبح الكلب عليها بوقار، مرَّ خنزير وهو يقبع بطريقته المتأنية، بدأ جواد في مكان قريب يمضغ العشب ويحمحم ... وأخيرا" استسلمت للنوم.

أيقظني فيديا مع الفجر. إن هذا الشاب المرح، النشط يروق لي كثيرا"، وكما استطعت أن ألاحظ، فقد كان أثيرا" لدى خور الكبير أيضا". كانا يداعبان بعضهما بعضا" بلطف جم. خرج العجوز

لملاقاتي، ولكن خور كان أكثر رقّة معي مما هو عليه بالأمس – ربما لأنني أمضيت الليل تحت سقفه، أو لعل ثمّة سببا" آخر.

قال لي باسما"، أعددت لك السماور، لنذهب ونشرب الشاي.

جلسنا حول الطاولة. جلبت إمرأة قوية البنية، وهي إحدى كناته: خزفية حليب. دخل ابناؤه بالتتالي إلى الكوخ.

قلت للعجوز: يا له من رهط يافع لديك.

نطق وهو يقضم قطعة سكر صغيرة – أجل، يبدو أنهم لا يشتكون مني ولا من شيخوختي.

وهل يعيشون كلهم معك؟

كلهم، هم أنفسهم يرغبون في ذلك، على هذا النسق يعيشون،

وهل كلهم متزوجون؟

أجاب مشيرا" إلى فيديا، الذي اتكأ كالسابق إلى الباب، هو الوحيد، الذي شاخ و لم يتزوج، أما فاسكا فما زال فتيا" وباستطاعته الانتظار.

اعترض فيديا قائلا" – وما جدوى الزواج؟ أنا راض" بحياتي هذه، فما حاجتي إلى الزوجة، وإلى الزعيق معها؟

استرسل العجوز في حديثه ساخرا" من الخادمات – آه منك ... إنني أعرفك ! إنك تضع الخواتم الفضية في أصابعك ... وتتشمّم الفتيات في الغناء ... «كفى، يجب أن تخجل !».

لقد خبرتك جيدا" أيتها اليد الناعمة !

وما نفع المرأة؟؟

أجاب خور بشموخ، المرأة عاملة، خادمة الرجل.

وما حاجتي إلى العاملة؟

أنت تريد الآخرين أن يرفعوا الكستناء من النار، إننا نعرف أمثالك من الناس.

إذن زوجتي، ما دام الأمر هكذا، حسنا"؟ ما بالك، هيا تكلم؟

حسبك، حسبك أيها المزّاح. أتدري، إننا كدّرنا راحة ضيفنا، لا تقلق، سأزوّجك ... أرجو ألا تنزعج أيها السيد، فهو ما زال غرّا" كما ترى، و لم يبلغ من الرشد سويا" بعد.

هزّ فيديا رأسه ...

تعالى صوت مألوف وراء الباب – أخور في البيت؟ – ودخل كالينتش البيت حاملا" في يديه كمية من التوت البري، الذي جمعه لصديقه خور.

حيّاه العجوز بحرارة. نظرت مندهشا" إلى كالينتش: أعترف إنني لم أتوقع مثل «رقة الحاشية» تلك من فلاح.

ذهبت إلى الصيد في هذا اليوم بعد مضي أربع ساعات على الوقت المألوف، قضيت الأيام الثلاثة التالية عند خور. استحوذ معارفي الجدد على اهتمامي. لا أدري كيف حظيت بثقتهم، ولكنهم كانوا يتحدثون

معي بدون كلفة. كنت أستمع إليهم مليا" وأتأمّلهم بسرور. لم يشبه الصديقان بعضهما بعضا" قط. إن خور امرؤ إيجابي، عملي، له ذهن مدبّر عقلاني، بينما كالينتش على النقيض منه، إذ يعتبر في عداد المثاليين والرومانتيكين، فهو من أولئك الناس المتحمّسين الحالمين. خور يدرك الواقع، أعني أنه بنى بيتا" وجمع نقودا" وكان على وئام مع سيده وغيره من المسؤولين، بينما كالينتش يحتذي الخفّ الليفي في سيره ويجد مشقّة في عيشه. أنجب خور عائلة كبيرة مطيعة موحدة، كان لدى كالينتش يوما" ما زوجة يخشاها و لم ينجبا أطفالا" قط. فهم خور جوهر بولوتيكين حق الفهم، بينما بجّل كالينتش سيده. كان الحب بين خور وكالينتش متبادلاً ومشمولاً بالرعاية والاحترام. كان خور قليل الكلام، كان يمزح، ويحتفظ بأفكاره في دخيلته، كان كالينتش يتكلم بحرارة، علما" أنه لا يغني كالعندليب كما يفعل عامل معمل نشط. بيد أن كالينتش كان ينعم بمزايا اعترف له بها خور نفسه، فهو مثلا" يُعمل الأرقّاء للدم والرعب والهيجان ويطرد الديدان وينقاد النحل ليده. طلب منه خور، في حضوري، قيادة جواد ابتاعه حديثا" إلى الإسطبل، نفّذ كالينتش طلب العجوز المستريب بفخر وإخلاص – كان كالينتش أقرب إلى الطبيعة – أما خور فأكثر قربا" من الناس والمجتمع، كالينتش لا يحب التبصر في الأمور ويؤمن إيمانا" أعمى بكل شيء، بينما توصل خور إلى وجهة نظر ساخرة من الحياة. لقد رأى وخبر أمورا" شتى وتعلمت أنا منه الكثير أيضا".

عرفت مثلا" من أحاديثه أن كل صيف تأتي قبيل الحصاد، عربة غير كبيرة ذات شكل خاص إلى القرى. يجلس في هذه العربة امرؤ يرتدي قفطانا"، يبيع المناجل. إذا كان الدفع نقدا"، طلب روبلاً وخمسة وعشرين كوبيكا" فضيا" أو روبلا" وخمسين كوبيكا" من

الأوراق المالية، وإذا كان دينا" طلب ثلاثة روبلات ورقية وروبلا فضيا". ومما لا ريب فيه أن الفلاحين جميعهم يشترون بالدين، يعود ذلك الشخص ثانية بعد أسبوعين أو ثلاثة مطالبا" بالنقود. حينئذ يكون الفلاح قد فرغ لتوه من حصاد الشوفان، ولديه طبعا" ما يدفع به دينه، فيرافق التاجر إلى الخمارة وهناك يسوي حسابه معه. دار في خلد بعض الملّاكين أن يبتاعوا المناجل هم أنفسهم بالدفع نقدا" ويوزعونها بالثمن نفسه وتكون دينا" على الفلاحين، ولكن تبين أن الفلاحين غير راضين لدرجة أن استبدت بهم الكآبة، والسبب أنهم سيحرمون جرّاء ذلك من متعة طقطقة المنجل والإصغاء له وتقليبه في أيديهم والسؤال ما يقارب عشرين مرة من البائع المحتال الضيّق الأفق: «حسنا" أيها الأخ أوليس المنجل معطوبا" نوعا" ما؟».

تتبع الحيل نفسها إبان شراء المطارق مع فارق واحد، تتدخل النساء في تلك الحالة في القضية، مما يحمل البائع نفسه أحيانا" على التنازل لصالحهن بمقتضى الضرورة، لكن النساء أكثر من يقاسين في مثل تلك الحالة: إن المسؤولين عن تسليم المواد إلى معامل الورق يعهدون بشراء الخرق إلى صنف معين من الناس يطلقون عليهم في بعض المناطق اسم «النسور». يتسلم هذا النسر من التاجر زهاء مئتي روبل من الأوراق المالية ويذهب للعثور على الغنيمة، بيد أنه على النقيض من الطائر النبيل الذي استقى اسمه منه، لا يهاجم جهارا" وببسالة، وإنما العكس تماما" إذ يلجأ «النسر» إلى الدهاء والمكر. فهو يترك عربته أينما كان بين الشجيرات في ضواحي القرية، ثم يشق طريقه كعابر سبيل أو متسكع وراء الأكواخ والممرات الخلفية. تحسّ النساء غريزيا" باقترابه ويسرن الهوينى لملاقاته. وتتم الصفقة بسرعة. لا يعطين «للنسر» مقابل بضعة فلوس نحاسية جميع الخرق الزائدة فحسب وإنما غالبا" ما يرمين إليه

بقميص الزوج أو تنوراتهن. وقد وجدن في الفترة الأخيرة من المربح أن يسرقن بعضهن بعضا"، ويسوّقن، بهذه الوسيلة، ما لديهن من خيوط القنب، إن هذه «العادات» تساعد خصوصا" على الترويج المهم لصناعة «النسور» وتحسينها ! لكن الفلاحين شرعوا بدورهم يرهفون السمع، ويلجؤون عند أدنى ريبة أو شائعة قصية عن ظهور «النسر» إلى اتّخاذ التدابير الصائبة والوقائية بخفة وحيوية. أو ليس مهينا" حقا"؟ إن بيع القنب من شأنهن، وهن سيبعنه لا محالة – لا في المدينة، لأنه ينبغي عليهن أن يجرجرن أنفسهن إلى المدينة – وإنما للتجار والجوّالين الذين يحسبون – لعدم وجود ميزان دقيق – كل أربعين حفنة معادلة لبود واحد، وأنت تعرف أي حفنة وأي كف لدى الروسي، لا سيما عندما يكون «منتفعا"» منها ! سمعت حكايات كثيرة من هذا النمط، وأنا امرؤ غير مجرب و لم «أعش» في القرية (كما يقولون عندنا في أوريول). لكن خور لم ينفرد بالحديث، وإنما كان يسألني عن أشياءَ جمّة. علم أنني سافرت إلى الخارج، وتأجّج حب الاستطلاع فيه ... و لم يكن اهتمام كالينتش بأقل منه، بيد أن كالينتش أثرّ فيه قبل كل شيء وصف الطبيعة والجبال والشلالات والبنايات غير المألوفة والمدن الكبيرة. لقد عني خور بالأسئلة الإدارية والحكومية، تناول الأشياء بانتظام: «هل الأمور عندهم هناك على الطراز الذي عندنا أو أنها مغايرة له؟ ... حسنا" أيها السيد ما رأيك فيهم؟ ... بينما كان يهتف كالينتش في أثناء حديثي «وي° ! أيها الرب، لقد تحققت إرادتك !» سكت خور وقطّب حاجبيه الكثيفين وكان يعلق أحيانا" : «أقول، إنه لشيء جيد، لكن هذا النظام، لا يلائمنا». ما بوسعي نقل كل تعليقاته ولا ضرورة لها، غير أني خرجت من أحاديثنا بقناعة واحدة، لن يتوقعها القارئ على الأرجح أبدأ، هي أن بطرس الأكبر كان روسيا" صميما" في صفاته القومية وفي طبيعة إصلاحاته.

الروسي واثق بقوته وصلابته بحيث أنه ليس كريها" إليه إرهاق نفسه: وهو لا يعني بماضيه إلا لماما" ويتطلع بإقدام إلى المستقبل، إنه يعجب بما هو جيد ولا ينكر ما هو معقول، والأمر سيان لديه حيال المصدر الذي انبعث منه، يهزأ عقله السديد جذلا" من الفكر الألماني الجاف، ولكن الألمان – حسب كلام خور – شعب مثير للاهتمام وهو مستعد للتعلم منهم. كان خور بفضل وضعه الاجتماعي المتميز واستقلاله الحقيقي، قادرا" على أن يحدثني عن أشياء كثيرة، لن تقتلع ولو بالمنجل من امرؤ آخر، ولن يطحنها حتى حجر الرحى، كما يقول الفلاحون، فهو – يدرك وضعه حق الإدراك – سمعت للمرة الأولى، إبان حديثي مع خور، الكلام البسيط الذكي للفلاح الروسي. كانت معارفه جيدة واسعة بالنسبة له، رغم أنه لا يعرف القراءة بينما يعرفها كالينتش. علق خور «إن هذا الطائش تعلم القراءة والكتابة، و لم تمت عنده نحلة قط».

وهل علّمت أولادك القراءة؟

أجاب خور بعد برهة صمت وجيزة: فيديا تعلم.

وما شأن الآخرين؟

لم يتعلموا.

ما السبب؟

لم يجب العجوز وبدّل دفة الحديث، مهما بلغ خور من حصافة الفكر، فإنه يظل يؤمن بكثير من الآراء الباطلة والأحكام المسبقة. فهو يزدري النساء، مثلا"، من أعماق روحه وعندما يكون منشرح المزاج

فإنه يتسلى بهن ويسخر منهن. إن زوجته عجوز مشاكسة، تقضي النهار برمته على سطح الموقد، وهي دائما" تتذمر وتكيل السباب، إن ابناءها لا يعيرونها إهتماما"، إلا أنها تُبقي كنّاتها في خوف دائم من الرب، وليس عبثا" أن تغني الحماة في الأغنية الروسية.

لست ابنا" لي.

لست رب عائلة !

ما دمت لا تضرب زوجك

ما دمت لا تضرب صغيرك ...

خطر لي ذات مرة أن أدافع عن الكنّات وحاولت استثارة عاطفة خور، بيد أنه عارضني بهدوء: «لعلك تريد إشغال نفسك بالترهات ... دع النساء يتشاجرن ... وسيكن في حال أسوء إذا سعيت للحؤول بينهن، ولا يستأهلن تلويث يدك بهذا الأمر». كانت العجوز الحاقدة تهبط أحيانا" من سطح الموقد وتصيح على الكلب في الفناء محدّثة إياه: «هلّم إلى هنا، أيها الكلب» ! وتضربه على ظهره النحيف بالمسعر أو تقف تحت السقيفة و«تنبح» – على حد تعبير خور – على كل المارة. ومع ذلك فقد كانت تخشى زوجها وتعود أدراجها إلى مكانها فوق الموقد تلبية لأوامره.

ولكن من المثير حقا" أن تصغي إلى نقاش كالينتش وخور عندما يتعلّق الأمر بالسيد بولوتيكين. يقول كالينتش: «حذار يا خور أن تمسّه بكلمة أمامي». ويعترض الآخر: «إذن ما باله لا يمنحك جزمة جيدة لتلبسها؟» «ليأخذ الشيطان الجزمة ! ... وما حاجتي إلى الجزمة؟

إنني فلاح ...» – «وأنا أيضا" فلاح ولكن انظر ...» وبعد هذا القول يرفع خور قدمه ويري كالينتش الجزمة المصنوعة على الأرجح، من جلد الماموث. أجاب كالينتش «وي°، ولكنك لست فلاحا" مثلنا !» «حسنا"، ولكن لماذا لا يعطيك مالا" لشراء خف، فأنت تذهب معه إلى القنص وإنك لتحتاج كل يوم إلى خف جديد» «إنه يعطيني مالا" لشراء الخف» «أجل تفضل عليك بعشرة كوبيكات في العام الماضي». اعتكف كالينتس جانبا" وهو منزعج، بينما انفجر خور بالضحك، وغارت عيناه الصغيرتان تماما".

غنّى كالينتش غناء جميلا" حقا" وعزف على البالا لايكا. أنصت خور إليه وأنصت ثم أمال فجأة رأسه جانبا" وشرع يرفع صوته الشاكي. وكان يحب خصوصا" أغنية: «آه يا مصيري القاسي، آه يا مصيري» و لم يكن فيديا ليفوّت الفرصة دون أن يسخر من أبيه «مالك، أيها العجوز تتشكى؟» لكن خور أسند خده إلى يده، أغلق عينيه وواصل شكواه من حظه ... بينما لم يكن في الأوقات الأخرى من هو أكثر نشاطا" منه: فهو دائما" يشغل نفسه بعمل ما: يصلح العربة أو يعمل سياجا" جديدا" أو يتفقد عدة الفرس. ومع ذلك لم يول. إهتماما" خصوصيا" للنظافة، وقد أجاب ذات مرة على تعليقاتي أن «لا بد للكوخ من البقاء في الروائح».

فاعترضت عليه قائلا": «ولكن ألا ترى كم هو نظيف مكان كالينتش حيث عميرة النحل؟».

أجاب متنهدا" «النحل لا يستطيع العيش بدون نظافة».

وسألني بمناسبة أخرى:

«هل لديك ضيعة أيها السيد؟»

«عندي»

«أبعيدة من هنا؟»

«زهاء مئة فيرست»

«حسناً، وهل تعيش في ضيعتك أيها السيد؟»

«أعيش فيها»

«أحسب أنك تتسلى على الأغلب بالبندقية»

«أجل، لا مندوحة من الإعتراف بذلك»

«نعم إفعل أيها السيد، أطلق النار على الطيهوج كما يحسناً لك، ولكن إستبدل وكيلك باستمرار»

في مساء اليوم الرابع، أرسل السيد بولوتيكين في إثري، غمرني شعور بالأسف على فراق العجوز، اتّخذت لي مقعداً في العربة برفقة كالينتش.

قلت: «حسناً، وداعاً يا خور، أتمنى لك موفور الصحة، وداعاً يا فيديا».

«وداعاً أيها السيد، وداعاً، لا تنسنا».

غادرنا مع بزوغ الفجر. قلت وأنا أتطلع إلى السماء الناصعة «سيكون الجو رائعاً نهار غد».

اعترضني كالينتش «كلا، ستمطر، فالبط يرشش والأعشاب قوية الرائحة للغابة».

سرنا بين الشجيرات. تغنى كالينتش بصوت خافت وهو يهتز على مقعد الحوذي وينظر ويطيل النظر إلى الفجر ...

غادرت في اليوم التالي بيت السيد بولوتيكين المضياف.

يرمولاي وزوجة الطحان

ذهبت مساء مع الصياد يرمولاي إلى «الغطاء» ... ولكن ربما لا يعرف جميع قرائي ما هو الغطاء. فانصتوا إلي أيها السادة.

يمكنك أن تذهب في الربيع، قبيل ربع ساعة من غروب الشمس، إلى الغابة حاملا" بندقيتك دون أن تصطحب الكلب معك، تبحث لنفسك عن مكان أينما كان قرب أطراف الحرش، تجيل النظر فيه، تفحص كبسولة البندقية وتغامز أصحابك. تصرمت ربع ساعة. توارت الشمس، لكن الغابة ما انفكت مضيئة، الهواء نقي شفاف، الطيور تتهامس مهذارة، العشب الغض يسطع سطوع الزمرد المرح .... ها أنت ذا تنتظر. يعتم جوف الغابة تدريجيا"، تنساب أشعة شفق المساء القرمزية ببطء على جذور الأشجار وجذوعها وترتفع أعلى فأعلى متحركة من الأغصان السفلى التي ما برحت عارية تقريبا" إلى قمم الأشجار الساكنة الوسنانة ... وها هي ذي القمم يلفها الغبش، تضحي السماء الوردية داكنة الزرقة. ازداد عبير الغابة وفاحت رطوبة خفيفة دافئة، سكن النسيم الحائم حولنا. رقدت الطيور. لم تنم كلها دفعة واحدة وإنما حسب أجناسها، هجع الشرشور، بادئ بدء وبعد بضع لحظات أبو الحناء ثم تبعه الدررسة. أمست الغابة أعتم فأعتم.

تلاحمت الأشجار في حشد كبير أسود، أطلت وجلة أولى النجوم في السماء الداكنة الزرقة. رقدت كل الطيور، ما خلا الحميراء وصغار

نقار الخشب، فما فتؤوا يطلقون بين حين وآخر صفيرا" وسنان ... ثم أخلدوا إلى الصمت. صدح فوقنا مرة أخرى صوت الهازجة الرنّان، وفي مكان ما صاحت الصفاريّة نائحة وغرد العندليب للمرة الأولى. إن فؤادك يبرِّحه الانتظار، وفجأة – ولا يفهمني سوى الصيادون دوّى في السكون العميق نعيق وهسهسة من نمط خاص، تناهت إلى الاسماع رفرفة رتيبة، ندّت من جناحين رشيقين لدجاجة الغابة التي مالت بمنقارها الطويل ميلا" جميلا" وطارت بخفة من خلف شجرة البتولا الداكنة متجهة نحو إطلاقك الناري.

هو ذا ما يعني «أن تقف في الغطاء».

ذهبت مع يرمولاي متوجّهين صوب الغطاء، ولكن أرجو المعذرة أيها السادة إذ ينبغي عليَّ أن أعرّفكم في البداية على يرمولاي.

تصوَّروا في مخيلتكم امرءاً عمره يناهز الخامسة والأربعين سنة، طويلا"، نحيفا"، ذا أنف طويل مستدق، جبهته ضيقة، له عينان رماديتان، صغيرتان، شعره أشعث، شفتاه عريضتان ساخرتان.

يرتدي هذا الشخص شتاء" وصيفا" قفطانا" قطنيا" ضاربا" إلى الصفرة، مفصّلا" على الطريقة الألمانية لكنه يتّشح بزنار، يلبس بنطلونا" واسعا" أزرق وقبعة حاشيتها من فرو إستراخان، أهداها له ملّاك مفلس كان في حالة انشراح، ربط كيسين في حزامه، الأول إلى الأمام وقد ثني بمهارة إلى شطرين: للبارود وللخردق، والآخر نحو الخلف لوضع الطرائد، يأخذ يرمولاي القطن من قبعته الخاصة، ويبدو أن قطنها لا ينفذ معينه.

يستطيع بيسر أن يشتري بما لديه من النقود المودعة لقاءً للطرائد المبيعة حزام خراطيش وجرابا"، لكنه لم يجل. بخاطره ولو مرة

واحدة الإقدام على ابتياعهما واستمر يحشو بندقيته كالسابق، مثيراً" دهشة مشاهديه بمهارته التي يتحاشى بفضلها، خطر تناثر أو اختلاط الخردق والبارود.

تحتوي بندقيته على ماسورة واحدة وصوان، زد° على ذلك أنها تتسم بصفة يقظة، فهي «ترفس» مما تسبب عنه أن غدا خد يرمولاي الأيمن أكثر إنتفاحا" من الأيسر دائما". كيف يستطيع أن يرمي باستمرار من هذه البندقية؟ – مما لا يخطر حتى ببال امرئ داهية – لكنه كان يرمي. عنده كلب صيد اسمه فاليتكا وهو مخلوق رائع. لم يطعمه يرمولاي قط.

ويتحدث قائلا": «كان بودّي أن أطعم الكلب، بيد أنه حيوان ذكي، ويجد غذاءه بنفسه». هكذا كان ديدنه في الواقع، ومع أن فاليتكا أذهل حتى العابرين غير المكترثين بفرط هزالة، لكنه عاش، وعاش طويلا"، رغم أنه كان في حالة مزرية، فلم يختف. ولو لمرة واحدة و لم يظهر رغبة بترك سيده. حدث ذات مرة، في صغره، أن توارى ما يقارب اليومين، يدفعه هواه للإقدام على ذلك، لكنه سرعان ما تخلص من هذا الحمق.

الصفة البديعة عند فاليتكا هي لامبالاته – المستعصية على الإدراك – إزاء كل شيء في الدنيا ... ولو لم يكن الحديث عن الكلب لاستعملت كلمة: الخيبة. ألف أن يجلس ويثني ذيله الأبتر تحته، يقطّب، يرتعش أحيانا" ولا يتبسم أبدا". (من المعروف أن الكلاب يمتلكون المقدرة على الابتسام، بل وحتى الابتسام بوداعة). كانت طلعته بالغة القبح، وما كان يفوّت أي خادم عاطل في الفناء فرصة الاستهزاء اللاذع من مظهره، لكن فاليتكا تحمّل ببرودة مذهلة كل هذا الإستهزاء بل

وحتى الضربات. كان موضع متعة خصوصية للطباخين الذين يتركون عملهم في الحال، وينطلقون خلفه صائحين شاتمين ساعين للحاق به حينما يرونه يدسّ خطمه الجائع، جرّاء، ضعف لا يتسم به الكلاب وحدهم، في الباب المفتوح قليلاً"، وقد أغرته رائحة المطبخ الدافئة اللذيذة. أما ميزته في الصيد فإنه لا يدركه التعب ويتمتع بحاسة جيدة، لكن إذا اتّفق مصادفة ولحق بأرنب جريح، فحينئذ يأكله باستمتاع حتى آخر عظم فيه في مكان ظليل بارد تحت شجيرة خضراء في منأى قصي عن يرمولاي، الذي يكيل له السباب، بكل اللهجات المعروفة وغير المعروفة.

إن يرمولاي مملوك من أحد جيراني الملّاكين ذوي النمط القديم. لا يحب ملّاكو النمط القديم «الطرائد البرية» ويحتفظون بالدواجن الأليفة. يشرع طباخو الملّاكين القدماء في الحالات غير العادية، فحسب، كأيام عيد الميلاد وأعياد الاسماء والانتخابات، بطبخ الطيور ذات المنقار الطويل ويتملّكهم شعور بالمجازفة، يتسم به المرء الروسي عندما لا يدرك هو نفسه جليّة الأمر الذي يقوم به، فيبتكرون كل أنواع التوابل ويضيفونها إلى الطبق حتى إن عدداً" كبيراً" من الضيوف يتفحّصون بفضول وانتباه المأكولات المقدمة إليهم، ومع ذلك لا يتوصلون إلى معرفة مذاقها. طلب يرمولاي جلب زوجين من الطيهوج وكروانا" إلى مطبخ الملّاك مرة في كل شهر ويسمح له بالمقابل بالعيش كيفما شاء وكما يريد. لقد أنكروه بصفته امرءاًلا يصلح لأي عمل و«لا يرتجى نفع منه» كما يقولون عندنا في أوريول. لم يعطوه، دون ريب، خردقاً" أو بارودا"، وفقاً" للمبدأ نفسه الذي لا يطعم بموجبه كلبه، فهم يتمسكون به بدقة تامة. كان ليرمولاي نمطاً" بالغ الغرابة: عديم الاكتراث كالطير، ثرثار لحدٍ ما، مشتّت الفكر، سمج

المظهر، يحب معاقرة الخمر كثيراً"، لا يعرف الاستقرار في مكان، يحرّك قدميه بعجلة في أثناء المشي مترنحاً" من جانب لآخر. كان يقطع وهو على هذه الحال من الحركة والترنح زهاء خمسين فيرستاً" في اليوم. وقد تعرّض لشتى أنواع المغامرات: بات في المستنقعات وفوق الأشجار والسطوح وتحت الجسور وفي العنابر، ظلّ أكثر من مرة وراء أبواب موصدة في العلية أو القبو أو العنبار، حُرم من بندقيته وكلبه ومن الملابس الضرورية للغاية. كان يُضرب لمدة طويلة وبشدة، ومع ذلك يعود بعد مدة من الزمن إلى البيت مرتدياً" الملابس ومعه البندقية والكلب.

لا يمكن أن تسميه بالمرء المرح، رغم أن حالته النفسية كانت دائماً" على ما يرام، ويبدو عموماً" غريب الأطوار.

يهوى يرمولاي الحديث لا سيما بعد الشرب، مع امرئ ينسجم وإياه ولكن لمدة غير طويلة، ينهض أحياناً" ويمضي. «لكن إلى أين تذهب أيها الشيطان؟ لقد هبط الليل في الخارج». «إلى تشابلينو»، «ما بالك تجرجر نفسك إلى تشابلينو، وهي على بعد عشر فيرستات»، «هناك أبيت عند الفلاح سوفرون»، «حسناً"، نم هنا»، «كلا، لا يمكن». يذهب يرمولاي مع فاليتكا في الليل الداجي، عبر الشجيرات والحفر، علماً" أن الفلاح سوفرون لن يسمح له، على الأرجح، بالدخول إليه، زد على ذلك ربما يضربه على عنقه: لأنه تسبب في إزعاج الناس الشرفاء. لكن لا أحد يضاهي بالمقابل يرمولاي في فن اصطياد السمك إبّان الربيع من مياه الفيضان والتقاط السرطانات بيديه واكتشاف الطرائد بغريزته، خادعاً" السُماني مدرباً" البواشق، ممسكاً" البلابل بواسطة محاكاة أغنية «مزمار عفريت الغابة» أو

«طارت الوقوق»[٤] ... شيء واحد لم يقدر عليه: تدريب الكلاب، إذ كان يعوزه الصبر للقيام به.

كانت عنده زوجة، يذهب إليها مرة في الأسبوع. تحيا في كوخ صغير قذر نصف مهدم، تدبر أمورها بأي شكل من الأشكال، ولا تدري في العشية قط، إن كانت قادرة على أن تبقى شبعى حتى الغد، وقد، عانت عموماً من مصير مر. إن يرمولاي هذا، اللامكترث، الحسناً يعاملها بفظاظة وخشونة، ويصبح رهيب المنظر صارماً في البيت، ولا تعرف زوجته المسكينة كيف تسترضيه، ترتعش من نظرته، تبتاع له الخمر بآخر كوبيك لديها، تغطية مستكينة بمعطفها المصنوع من فرو الضأن حينما يرتمي بعظمة فوق سطح الموقد وينام نومة الفارس. اتّفق لي أن لاحظت عنده أكثر من مرة نوعاً من المظاهر اللاإرادية المتسمة بالصراحة المتجهمة. لم يعجبني تعبير وجهة حينما يعضّ الطير المصاب بطلق ناري لغرض قتله. ومع ذلك، فإن يرمولاي لا يمكث أبداً أكثر من يوم في البيت. ويعود مرة أخرى إلى ترك داره ذلك الـ «يرمولكا» كما يلقبونه على مدى مسافة تبلغ مئة فيرست وكما يسمي هو نفسه أحياناً. إن أوضع خادم يشعر بأفضليته على هذا المتجوّل وربما كانوا لهذا السبب بالذات يعاملونه بمودة، بينما كان الفلاحون بادئ ذي بدء يتلذّذون بطرده أو اصطياده كأرنب في الحقل، ولكن أخيراً تركوه في رعاية الله، ولم يتعرّضوا له عندما عرفوا أنه غريب الأطوار، حتى إنّهم أخذوا يعطونه الخبز ويتجاذبون معه أطراف الأحاديث. هذا هو الشخص الذي اصطحبته

٤– هذه التسمية معروفة لدى محبي البلابل: وتشير إلى أفضل «عطفة» في غناء اليلبل (ملاحظة الكاتب).

مرافقاً لي في الصيد وذهبت برفقته إلى الغطاء في غابة البتولا الكبيرة على شاطئ إيستا.

إنَّ كثيراً من الأنهار الروسية تشبه الفولغا، إحدى ضفافها جبلية والأخرى سهلية، وهذا هو شأن الإيستا. فهو نهر يلتوي التواءً غريباً للغاية يزحف كالأفعى، لا يجري مستقيماً ولو لمسافة نصف فيرست، وفي مكان آخر، من أعلى الربوة المنحدرة يمكن على مدى عشر فيرستات رؤية الخزانات والبرك والطواحين وحدائق الخضار المحاطة بالصفصاف والبساتين الكثيفة. الاسماك في إيستا بالغة الغزارة ولا سيما الشبوط (الفلاحون يلتقطونه أيام الحر بأيديهم من تحت الشجيرات). تطير طيور زمار الرمل الصغيرة رائحة غادية وهي تصفّر على امتداد الشواطئ الحجرية المرقشة بمياه الينابيع الباردة الوضاءة، ويسبح البط البري إلى وسط البرك ويظل ينظر حذراً فيما حوله، تتراءى طيور مالك الحزين تحت الظلال وفي الشروم تحت المنحدرات ...

وقفنا في الغطاء ما يقارب الساعة، قنصنا زوجين من دجاج الغابة، وظلت تحدونا الرغبة أن نجرب حظنا السعيد مرة أخرى قبيل طلوع الشمس (يمكن الذهاب إلى الغطاء في الصباح أيضاً) قرّرنا أن نقضي ليلتنا عند أقرب طاحونة. خرجنا من الغابة وهبطنا الربوة. جرى النهر بأمواج زرق داكنة، بات الهواء كثيفاً تحت وطأة رطوبة الليل.

طرقنا باب الطحان. نبحت الكلاب في الفناء.

نادى صوت أبحّ ناعس: «من هناك»:

«صيادون، دعنا نقضي الليلة عندك».

ما من جواب.

«سندفع لك».

«سأذهب وأخبر السيد ... عليكم اللعنة أيها الكلاب ! ... لا يعرف الهلاك إليكم سبيلاً ! ...»

سمعنا كيف دخل العامل إلى الكوخ ونكصنّ في الحال إلى الباب.

قال «كلا، السيد لا يأمر بإدخالكم».

«ما باله لا يأمر».

«إنه يخشاكم، فأنتم صيادون، ولربما تحرقون الطاحونة، انظروا، أي طلقات نارية بحوزتكم».

«ما هذا الهراء».

«احترقت عندنا الطاحونة في العام المنصرم، بعد أن بات بعض تجار الماشية فيها، وقاموا بإحراقها بطريقة ما».

«لكن ما عسانا نفعل أيها الأخ، لا يمكننا قضاء الليل في العراء؟».

«اقضياه أينما شئتما» ومضى مطقطقاً بجزمته.

أطلق يرمولاي شتى التعابير البغيضة في إثـره، أخيراً نطق مطلقاً آهة: «لنذهب إلى القرية».

بيد أن القرية تبعد فيرستان.

قلت له: «دعنا نبيت هنا في العراء، فالليلة دافئة، وسيعطينا الطحان شيئاً" من القش مقابل نقود ندفعها له».

وافق يرمولاي دونما اعتراض. وعدنا لطرق الباب ثانية.

تعالى صوت العامل مجدداً". «ما حاجتكما الآن؟ قلنا لكما لا يمكن البقاء».

أوضحنا له ما نريد. فذهب لمشاورة سيده في الأمر وعاد بصحبته. صرّت البوابة، خرج الطحان، وهو شخص طويل ذو وجه بدين ورقبة كرقبة الثور وبطن كبير مستدير. فوافق على اقتراحي.

قامت على بعد مئة خطوة من الطاحونة سقيفة صغيرة، لكنها مفتوحة من جميع الجهات. جاؤوا لنا بالقش والحشيش، ووضع العامل سماوراً" على العشب، جلس القرفصاء وبدأ ينفخ بالمدخنة نفخاً" دؤوباً". تجمر الفحم وأضاء وجهه الفتي بسطوع. هرع الطحان ليوقظ زوجته، ودعاني أخيراً" لقضاء الليلة في كوخه، لكنني فضلت البقاء في الهواء الطلق. حملت لنا زوجة الطحان الحليب والبيض والبطاطس والخبز. وسرعان ما غلى السماور وأخذنا نحتسي الشاي – ارتفع الضباب من النهر، كانت الريح هاجعة، والكراكي تصيح من حولنا، وتتعالى أصوات واهنة من عجلات الطاحونة. تتساقط تارة قطرات من ألواح المجارف ويتسرب الماء تارة أخرى من خلال ترابيس الخزان. أشعلنا موقد نار صغير. وبينما كان يرمولاي يشوي البطاطس في النار، استسلمت لِلرقاد. أيقظني همس متحفّظ رفيق. رفعت رأسي، جلست زوجة الطحان على برميل مقلوب أمام النار وتحدّثت مع صاحبي الصياد. سبق لي أن أدركت من ملبسها وحركاتها وطريقة حديثها، أنّها خادمة في بيت، وليست بالفلاحة

ولا امرأة من المدينة، لكنني الآن فقط تفحّصت قسماتها مليا". يلوح من مظهرها أن عمرها يناهز الثلاثين عاما"، وما زال ينمّ وجهها النحيف الشاحب عن آثار جمال رائعة، وقد أعجبتني خصوصا" عينيها النجلاوين الكثيبتين، أسندت مرفقيها على ركبتيها، وأمسكت وجهها بين يديها. جلس يرمولاي وقد أولاني ظهره وأخذ يضع شظايا الحطب في النار.

قالت زوجة الطحان: انتشر الوباء بين الماشية مرة أخرى في جيلتوخينا، وقد ماتت كلتا البقرتين لدى الأب إيفان ... رحماك يا إلهي !

سأل يرمولاي بعد هنيهة صمت: وكيف حال خنازيرك؟

ما زالت على قيد الحياة.

ليتك تهدين إلي ولو خنوصه على الأقل.

لم تجر زوجة الطحان جوابا" ثم أخذت نفسا".

من بصحبتك؟

السيد، السيد كوستوماروف.

ألقى يرمولاي بضعة أغصان من أشجار الشوح في النار، أحدثت الأغصان هسيسا" شاملا"، تصاعد الدخان الأبيض الكثيف مباشرة نحو وجهه.

لماذا لا يدعنا زوجك ندخل إلى الكوخ؟

إنه يخاف.

يا لهذا البدين ذي الكرش ..... عزيزتي أرينا تيموفيفنا، أجلبي لي قدحا" من النبيذ الجيد !

نهضت زوجة الطحان وتوارت في الظلام. غنّى يرمولاي في صوت خافت:

ما إن ذهبتُ إلى حبيبتي.

حتى تمزّق حذائي.

عادت أرينا وهي تحمل دورقا" صغيرا" وقدحا". اعتدل يرمولاي في جلسته، رسم إشارة صليب وشربه دفعة واحدة، ثم أضاف قائلا" «أهواه» !.

جلست زوجة الطحان مرة أخرى على البرميل.

أخبريني، أرينا تيموفيفنا، أما زلت عليلة؟

إنني عليلة.

ما بالك.

السعال يعذّبني في الليل.

قال يرمولاي بعد وقفة قصيرة – يظهر أن السيد قد أغفى. لا تذهبي إلى الطبيب يا أرينا، سيكون حالك أسوء.

إنني لا أذهب في جميع الأحوال.

تعالي عندي وحلّي ضيفة عليّ.

نكست أرينا رأسها.

أمّا زوجتي تلك فسأطردها في هذه الحالة، وأردف يرمولاي قائلا": حقا" سأفعل.

من الأفضل لك، يرمولاي بيتروفيتش، أن توقظ السيد، ألا ترى أن البطاطس قد شويت.

علّق خادمي المخلص بعدم اكتراث قائلا": دعيه يغطّ في نومه، إنه عدا كثيرا" وها هو ذا يرقد.

تململتُ على القش، نهض يرمولاي ودنا مني.

البطاطس جاهزة، تفضل وكل.

خرجتُ من تحت السقيفة، نهضت زوجة الطحان عن البرميل وهي تريد الذهاب. فأخذتُ أتحدث معها.

أمن أمد طويل استأجرتم هذه الطاحونة؟

انصرمت السنة الثانية منذ يوم الثالوث المقدس.

ومن أي مكان زوجك؟

لم تلتقط أرينا ماهية السؤال.

كرّر يرمولاي رافعا" صوته: من أي بلدة زوجك؟

من بيليف، إنه مدني من بيليف..

وأنت، أمن بيليف أيضا"؟

كلا أنا من الأقنان، ... كنت من الأقنان.

أقنان من؟

السيد زفيركوف. ولكني الآن حرة.

أي زفيركوف؟

ألكسندر سيليتش.

ألم تكوني وصيفة عند زوجته؟

وكيف استطعت أن تعرف ذلك؟ بلى، كنت.

نظرتُ الآن بفضول وتعاطف جديدين إلى أرينا.

استطردتُ قائلا": أنا أعرف سيّدك.

أجابت بصوت خافت وغضّت طرفها – أتعرفه؟

لا مندوحة من إطلاع القارئ على ما حدا بي إلى النظر بمثل ذلك التعاطف إلى أرينا. تعرفتُ إبّان مكوثي في بطرسبورغ، عن طريق المصادفة المحضة، بالسيد زفيركوف. كان يشغل منزلة ذات شأن نوعا" ما، ومعروف كامرء قدير ولبيب. كان عنده زوجة بدينة عاطفية بكّاءة حقود، إنها مخلوقة سوقية ثقيلة الظل وكان عندهما ابن، لا شك إنه ولد سيد حقيقي، كان مدلّلا" غبيا".

قلما كانت طلعة السيد زفيركوف صالحة، إذ تطل من وجهه

العريض الشبيه بالمربع تقريباً" عينان صغيرتان داهيتان كعيني الفأرة، وأنف بارز ذو منخرين كبيرين حادّين عريضين، يعلو جبهته المتغضّنة شعر رمادي مقصوص قصاً" قصيراً"، وترتعش شفتاه الدقيقتان باستمرار مبتسمتين ابتسامة متكلفة. ويقف السيد زفيركوف عادة مباعداً" ما بين قدميه الصغيرتين، واضعاً" يديه الصغيرتين البدينتين على جيبيه. اتّفق لي ذات مرة أن ذهبت معه في العربة بمفردنا خارج المدينة. تجاذبنا أطراف الأحاديث. ولما كان السيد زفيركوف امرءاً مجرباً" ذكياً"، فقد بدأ يرشدني إلى طريق الحقيقة.

قال أخيراً" بصوت أشبه بالصرير «اسمحْ لي بتعليق – أنتم الشباب تحاكمون جميع الأمور وتناقشونها إعتباطاً"، تعرفون القليل عن وطنكم، إن روسيا أيها السادة مجهولة لديكم، هذه هي جلية الأمر ! أنتم جميعاً" تقرأون الكتب الألمانية. خذْ مثلاً"، كنت الآن تحدثني في هذا وذاك من المواضيع، وما يخص تلك المسألة، حسناً"، أعني قضية الأقنان ... لا بأس. لا أجادلك في ذلك، حسن كل ما قلت، لكنك لا تعرفهم، لا تعرف أي نمط من الناس هم (مخط السيد زفيركوف عالياً" وتسعط النشوق).

اسمحْ لي مثلاً" أن أروي لك نكتة قصيرة واحدة، لعلها تكون موضع إهتمامك (أطلق السيد زفيركوف صوتاً" كالسعال). أنت، بالتأكيد تعرف، أي زوجة عندي، لعله من العسير أن تجد إمرأة أحسناً منها.

لا بد أنك تشاركني رأيي. إن وصيفاتها لا يوفر لهن الأكل والمسكن فقط، وإنما يخلُق ضرب من الفردوس أمام أعينهن .. لكن زوجتي سنّت سُنة لها، وهي ألّا تبقي الوصيفات المتزوجات. إنهن

لا يصلحن بالتأكيد للعمل: ينجبن الأطفال ... وهلم جرا، حسنا"، الوصيفة لا تستطيع في تلك الحالة أن ترعى سيدتها كما ينبغي ولا تلحظ عاداتها، إنها لا تفكر بذلك وبالها مشغول بأشياء أخرى. وعلينا أن نحاكم مثل هذه الأمور إستنادا" إلى الطبيعة البشرية.

حسنا" أيها السيد، كنا ذات مرة نجتاز قريتنا، قبل حوالي – لا أستطيع أن أحدد بالضبط – خمس عشرة سنة تقريبا". رأينا عند كبير القرية صبية، بنت غاية في الحسن، أتدري أن مسلكها ينطوي على شيء من التملق ...».

قالت لي زوجتي: «كوكو – هكذا كانت تسميني – لنأخذ هذه الصبية يا كوكو إلى بطرسبورغ، أتدري أنها تروق لي ... » قلت: «لنأخذها بكل سرور». لا ريب أن كبير القرية ركع على قدميه، أنه، أتعلم، لم يتوقع مثل هذه السعادة. لكن الصبية انفجرت بالبكاء كالحمقاء. حقا" إنه لمرعب بادئ بدء ترك بيت الوالدين عموما" ... ولا غرابة في ذلك. لكنها سرعان ما الفتنا. أرسلنا بها في البداية إلى غرفة الوصيفات وعلمناها طبعا" ما تقوم به. وماذا تظن؟ ... حققت الصبية نجاحات رائعة. كانت زوجتي تودها وتشفق عليها وأخيرا" جعلتها تتخطى بقية الوصيفات وأصبحت إحدى وصيفاتها. أو ترى ذلك ! علينا أن نكون منصفين لها، لم توجد لدى زوجتي وصيفة نظيرة لها، لم توجد مطلقا"، فهي خدومة، متواضعة، إنها تتحلى بجميع الصفات المطلوبة. وبالمقابل فإن زوجتي، ولا مناص من الاعتراف بذلك، دللتها بإفراط، ألبستها لباسا" فاخرا"، أطعمتها من نفس طعامها وأشربتها الشاي ... حسنا"، فعلت لها كل ما يمكن أن يخطر بمخيلتك.

استمرت في خدمة زوجتي ما يقارب عشرة أعوام. وفجأة، في

صباح يوم جميل، تخيل، تدخل أرينا، كانوا يسمونها أرينا – إلى مكتبي دون أن تستأذن مني – تركع عند قدمي .. أقول لك بصراحة لم أطق صبرا" على ما بدر منها ولا يجوز للمرء أن ينسى وقاره، أو ليس كذلك؟

«ما بغيتك؟» «سيدي ألكسندر سيليتش، أطلب عطفك» «في أي شيء؟» «اسمح لي أن أتزوج». أقول الحق، إنني ذهلت.

«ألا تعرفين أيها الحمقاء، إنه ليس لدى السيدة وصيفة أخرى؟»

«سأخدم السيدة كالسابق» «هراء ! هراء ! فالسيدة لا تشغل الوصيفات المتزوجات» «يمكن أن تحل مالانيا محلي» «أطلب منك ألا تجادلني !» «كما تشاء».

أعترف لك أنني صعقت وأقر أنني امرؤ لا شيء يسيئني بشدة، «أجرؤ أن اقول»، كما يسيئني نكران الجميل. ولا حاجة بي لإخبارك، فأنت أدرى أي زوجة عندي: ملاك في جسد، حسناة يعجز التعبير عنها.

يخيل إلي، أنه حتى الوغد يمكن أن تأخذه الشفقة عليها. طردتُ أرينا. وفكرت لعلها تثوب إلى رشدها، أتدري لا أحب أن أؤمن بوجود الشر ونكران الجميل الأسود في الإنسان، وماذا تظن؟ بعد مضي نصف سنة شرفتني بزيارة أخرى وأقدمت على الطلب نفسه.

حينئذ، أقول الحق، طردتها بقوة وهددتها وتوعدتها بإخبار زوجتي. كنت ساخطا". لكن تصور دهشتي: بعد انقضاء زمن قصير، جاءت زوجتي إلي والدموع تترقرق في عينيها، كانت مضطربة لدرجة أثارت مخاوفي «ماذا حدث»؟ «أرينا ..» أتتصور المسألة ...

أخجل من النطق بها جهارا". «مستحيل ! ... من هو؟» «الخادم بيتروشكا».

انفجرت غاضبا". إنني من صنف الرجال الذين لا يحبون إنصاف الحلول ! بيتروشكا غير ملوم، يمكن معاقبته ولكنه، على ما أعتقد لا جريره له. إنها أرينا ..... أجل، أجل وماذا أستطيع أن اقول بعد؟ بالتأكيد أمرت حالا" بقص شعرها، وأن ترتدي ثيابا" رثّة وترسل إلى القرية. لقد حُرمت زوجتي من وصيفة ممتازة، ولكن ما باليد حيلة – لا يمكن الصبر على السلوك السيء في بيتك. العضو السقيم ينبغي بتره حالا" .... حسنا"، حسنا"، أحكم بنفسك، فأنت تعرف زوجتي، إنها، إنها .... ملّاك في آخر الأمر ! وكانت مشغوفة بأرينا، وأرينا تدرك ذلك، و لم تخجل من سلوكها .... أترى؟ كلا، قل لي .... ها؟ ما عساي أن أوضح ! لا يمكن عمل شيء في كل الأحوال لقد أساءني أنا، وأنا بالذات وآلمني لمدة طويلة نكران الجميل لدى هذه الفتاة. لا يهمّني ما تقول .... لكن لا تبحث عن قلب أو شعور لدى أولئك الناس ! مهما أطعمت الذئب، فإن نظره ميمّم صوب الغابة .... إلى الأمام أيها العلم ! لقد حملتني الرغبة كي أبرهن لك فحسب ....

أدار السيد زفيركوف رأسه، لم ينه كلامه، تدثر بمعطفه بإحكام، كابحا" برجولة إضطرابة اللاإرادي.

لا ريب في أن القارئ يدرك الآن لماذا نظرت بتعاطف إلى أرينا. سألتها أخيرا" – أمن أمد طويل أنت متزوجة من الطحان؟

منذ سنتين.

أتعنين أن السيد سمح لك؟

لقد اشتروني.

من؟

سافيلي ألكسيفتش.

من هو؟

زوجي. (ضحك يرمولاي بدخيلته) وأردفت أرينا بعد صمت وجيز: هل حدثك السيد عني؟

لم أعرف ماذا أجيب عن سؤالها. صاح الطحان من بعيد «أرينا !»

فنهضت وذهبت.

سألت يرمولاي – هل زوجها امرؤ حسناً؟

لا بأس به.

وهل عندهم أطفال؟

كان لديهم طفل لكنه مات.

ما الخبر، هل أعجب بها الطحان، أو ليس كذلك؟ .. هل دفع مالاً" كثيرا" لشرائها:

لست أدري. إنها تعرف القراءة والكتابة، وهذا في صالحهم ...

إنه لشيء حسن. مما لا شك فيه أنها كانت موضع إعجابه.

وهل تعرفها منذ أمد طويل؟

منذ أمد طويل، سابقاً" كنت أذهب لسيدها. إنَّ ضيعتهم قريبة من هذه البقاع.

وهل تعرف الخادم بيتروشكا؟

بيوتر فاسيليفتش؟ أعرفه بالتأكيد.

وأين هو الآن؟

أصبح جنديا".

لزمنا الصمت.

سألت يرمولاي أخيراً" – ما بالها تبدو عليلة؟

ومن أين لها بالعافية ! غداً"، سترى، الغطاء سيكون على ما يرام لا بأس عليك أن تنام الآن.

ركض سرب من البط البري وهو يصفر فوقنا، سمعناه يهبط إلى النهر غير بعيد عنّا. أغسق الليل قماماً"، أخذ البرد يزداد، غرد البلبل في الغابة تغريداً" رنّانا"، تدّثرنا بالقش وغفونا ...

مياه توت الأرض

يبلغ الحر أقصى مداه في مستهل آب. لا يكون المرء مهما يكن حازما"وممسكا" بتلابيب فكره، في وضع يساعده على مواصلة القنص في الفترة ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة وتشرع أكثر الكلاب ولاء «بتنظيف مهماز الصياد» أعني تسير خلفه بخطوات، تزر ما بين عينيها بصورة غير طبيعية، وتمد لسانها بإفراط، بينما تحرك ذيلها بخضوع، – جوابا" عن عتاب سيدها – ويلوح الإرتباك على وجهها، ومع ذلك لا تسير إلى الأمام. اتّفق لي أن ذهبت في مثل ذلك اليوم بالذات إلى الصيد. قاومت طويلا" الإغراء بالاستلقاء تحت الظل ولو لهنيهة في مكان ما، بقي كلبي، دون أن يدركه الكلل، يجوس خلال الشجيرات لمدة طويلة، رغم أنه لا ينتظر على ما يبدو شيئا" صالحا" من نشاطه المحموم، أجبرني القيظ المتعاظم على أن أفكر أخيرا" بالمحافظة على بقايا قوانا وإمكاناتنا. جررت خطاي بشكل أو بآخر، إلى نهير إيستا الذي تعرف عليه قارئي الفاضل، هبطت من المنحدر وسرت على الرمل الأصفر الرطب في اتجاه الينبوع، المعروف في أنحاء الضاحية باسم «مياه توت الأرض». يتفجّر هذا الينبوع من شق في الشاطئ ويتحول تدريجيا" إلى مسيل صغير وعميق، يصب على بعد عشرين خطوة من هناك، بصخب مرح مهذار في النهر.

نمت شجيرات البلوط على منحدر المسيل، اخضوضرت حول

الينبوع أعشاب قصيرة مخملية، لا تكاد أشعة الشمس تمس المياه الباردة الفضية قط. وصلت إلى الينبوع. ألقيت على العشب مجرفة من خشب البتولا، وضعها فلاح، عابر سبيل من أجل الصالح العام. شربت حتى الارتواء، استلقيت في الظل وتطلعت حولي، جلس عجوزان وقد أولياني ظهرهما عند الشرم المتكون لدى انصباب الينبوع في النهر ومن التموجات الخفيفة التي تعلوه. أحدهما مكتنز لحد ما طويل القامة، يرتدي قفطانا" أخضر داكنا" أنيقا" وقبعة من الوبر، يصطاد السمك بالصنارة، والآخر نحيف قصير في سترة من الموخايار المرقع، بدون قبعة، يضع على ركبتيه قدرا" من الديدان، يمد يده أحيانا" على رأسه الأشيب، كما لو كان يرغب في حمايته من الشمس. تطلعت إليه متفحّصا" وتعرفت فيه على ستيبوشكا من شوميخينو. اسمح لي أيها القارئ أن أقدم لك هذا الشخص.

تقع على مسافة بضع فيرستات من قريتي، ضيعة شوميخينو الكبيرة، بكنيستها الحجرية التي شيدها كوزما ودواميان باسمهما هبة منهما. تجلى مقابل هذه الكنيسة في الأزمنة القديمة بهاء قصور الأسياد الرحبة المحاطة بابنية شتى كالمؤسسات والورشات والاصطبلات وسقائف الغرونت ومحلات العربات والحمامات والمطاهي الوقتية والأجنحة الجانبية للضيوف والمديرين والمستنبت الزجاجي ذي الأزهار والمراجيح للشعب وغيرها من الابنية الكثيرة أو ذات الفائدة القليلة. عاش في هذه القصور الملّاكون الأثرياء وكان يسير كل شيء وفق نظامه المرسوم، إحترق فجأة في صباح رائع كل هذا النعيم برمته. انتقل الأسياد غلى دار أخرى، أضحت العزبة خالية.

تحوّلت الربوع المحروقة الواسعة إلى مزرعة، وكُدّست في مكان ما أكوام من الآجر، وهي بقايا الأسس السابقة.

بنوا على عجالة كوخاً صغيراً من جذوع الأشجار السليمة وكسوها بألواح المراكب التي ابتاعوها قبل عشر سنوات لبناء جناح على النمط القوطي وسكن فيها البستاني ميتروفان وزوجته أكسينا وعائلتهم وأطفالهم. صدرت الأوامر إلى ميتروفان أن يجهز الخضار والخضروات لمائدة السيد، ويزرعها على امتداد فيرست ونصف، وعهدوا إلى أكسينا العناية بالبقرة التيرليزية التي تم إبتياعها من موسكو مقابل نقود كثيرة. ولكنها ويا للأسف كانت قد فقدت القابلية على الإنتاج، لذلك لم تعط حليباً منذ حين شرائها، وسلموها باليد عُلجوماً ذا عُرف رمادي طير «السيد» الوحيد، أما الأطفال فلم يحددوا لهم أي عمل بسبب صغر سنهم، علماً أن ذلك لم يعفهم مطلقاً عن التكاسل التام.

اتّفق لي أن قضيت الليل مرتين عند هذا البستاني، وتناولت بشكل عابر الخيار، الله أدرى لماذا، يتميز حتى صيفاً بحجمه الكبير وطعمه المائي الرديء وقشره السميك الأصفر. رأيت عنده للمرة الأولى ستيبوشكا. لم يبق خادم في شوميخينو، إضافة إلى ميتروفان وعائلته وغيراسيم وهو سادن الكنيسة، رجل مسن وأصم يعيش على الصدقات الخيرية في غرفة عند زوجة جندي حدباء، لذلك فإن ستيبوشكا الذي أود تعريف القارئ به لا يمكن اعتباره عموماً إنساناً عادياً ولا خادماً على وجه الخصوص.

يمتلك كل فرد وضعاً معيناً في المجتمع مهما كان هذا الوضع، فلا مندوحة أن يكون لديه نوع من الروابط، فيعطى كل خادم راتباً أو على الأقل ما يسمى «بالغذاء»: إن ستيبوشكا لا يتلقى مطلقاً أية معونة، ولا تصله صلة رحم بأحد ما، ولا علم لأحد بوجوده. ليس لهذا الشخص حتى ماض، ولا يتحدثون عنه، بل لا يكاد يسجل

ضمن إحصاء الرجال. سرت إشاعات غامضة أنه إشتغل في وقت من الأوقات خادماً" عند امرئ ما، أما من هو، ومن أين هو، وابن من، وكيف حصل على سترة الموخايار، والقفطان الذي يرتديه منذ زمن قديم، أين يعيش، وكيف يعيش؟ فلا يملك أحد أدنى فكرة عن هذه الأمور مطلقاً"، والحق يقال، إن ما من أحد شغلته هذه القضايا. الجد تروفيمتش الذي يعرف شجرة نسب كل الخدم حتى خط الجيل الرابع، قال في تلك المرة، إنه يتذكر أن ستيبان ينحدر من نسب إمرأة تركية، تفضل السيد المرحوم البريغادير الكسي رومانيتش بنقلها إلى الرتل في إحدى الحملات. كان ستيبوشكا لا يظهر حتى في أيام الأعياد، أيام المنح والضيافة بالخبز والملح وفطائر الحنطة السوداء والنبيذ الأخضر، وفق العادات الروسية القديمة، لا يظهر أمام الموائد المعروضة وبراميل الخمر، لا ينحني للسيد ولا يقترب من يده، لا يشرب قدح كحول تحت بصر السيد ومن أجل صحة السيد، ذلك القدح الذي تملؤه يد الوكيل البدينة، فيا لها من روح خيرة تأبى على البائس أن يأكل، وهو يمر مروراً" عابراً"، قطعة من الفطائر. يتبادلون في عيد الفصح قبل التهنئة معه، ولكنه لا يثني كُمه الملطخ بالزيت، ولا يخرج البيضة الملونة من جيبه الخلفي ولا يحملها وهو منقطع الأنفاس، رامش العينين إلى الأسياد الشباب بله السيدة الكبيرة. يعيش في الصيف في كرار خلف قن الدجاج وشتاء في غرفة ملابس الحمام وأيام الزمهرير في مخزن الحشيش المجفف. لقد ألفوا رؤيته، بل كانوا أحياناً" يركلونه، ولكن لا أحد يتحادث معه. وهو نفسه، على ما يبدو، لم يفتح فاه قط. أوى هذا الإنسان المهمل بعد ذلك الحريق، أو كما يقول أهل أورلوف «آوى» إلى البستاني ميتروفان. لم يمسسه البستاني و لم يقل له عش عندي، و لم يطرده أيضاً". لم يعش ستيبوشكا لدى البستاني، كان يسكن هناك ويطوف بالمزرعة، كان يسير ويتحرك دون أدنى ضجة،

يسعل ويعطس واضعا" يده على فمه وأنفه، يساوره شيء من الخوف، إنه مشغول دائما"، يكد خلسة كالنمل، كل هذا من أجل الطعام، والطعام فقط، ولو لم يعن ستيبوشكا نفسه من الصباح وحتى المساء بغذائه لمات من الجوع، ويا لسوء الحال عندما لا تعرف في الصباح بأي شيء ستسد رمقك في المساء ! يجلس ستيبوشكا أحيانا" تحت السياج ويزدرد الفجل أو يمتص الجزر أو يفتت تحته رأسا" من الكرنب الوسخ، أو يحمل سطل ماء إلى مكان ما وهو يئن، أو يشعل النار تحت القدر ويرمي قطعا" سودا" من عُبه في القدر، أو يكسر خشبة صغيرة في الكرار أو يثبت مسمارا"، أو يعمل رفا" للخبز. يقوم بعمل كل هذه الأشياء وهو صامت كما لو كان في ركن: تتطلع وإذا به قد إختفى، توارى على حين غرة لمدة يومين، ولا ريب في أن أحدا" لم يلحظ غيابه. تجيل بصرك وها هو ذا معنا ثانية، يقوم بوضع شظايا الخشب خلسة في مكان ما حول السياج عند الأنفية. وجهه صغير، عيناه صغيرتان صفراوان، شعره متناثر حتى حاجبيه، أنفه دقيق، أذناه كبيرتان للغاية وشفافتان كأذني الخفاش، لحيته كأنها قد حُلقت قبيل أسبوعين، ولا تكون أصغر أو أكبر من ذلك أبدا" . هذا هو ستيبوشكا الذي إلتقيته على شاطئ إيستا بصحبة العجوز الآخر.

تقدمت منهما، حييتهما، وجلست بجانبهما. تعرفت في رفيق ستيبوشكا على شخص، سبق وأن رأيته أيضا": وهو قن أعتقه الكونت بيوتر اليتش، ميخائيلو سافيليف، ولقبه تومان. عاش عند امرئ من الطبقة الوسطى في بولوخوف مصاب بالتدرن الرئوي، صاحب الخان الذي كنت غالبا" ما أنزل فيه. إن المسافرين في طريق أورلوف الكبير والموظفين الشباب والناس الآخرين غير المشغولين (أما التجار المغمرون في رياشهم المقلمة فلا يعيرون إهتماما" لذلك)

ما زال بوسعهم حتى الوقت الراهن أن يلحظوا على مسافة غير بعيدة من قرية ترويتسي بيتا" خشبيا" ضخما" مؤلفا" من طابقين، مهملا" تماما"، سطحه متداع، نوافذه محطمة كليا" ومطلة على الطريق نفسه. لا يمكن أن تتصور شيئا" أكثر كآبة من هذه الخرائب في ظهيرة نهار صاف مشمس. هنا عاش في وقت من الأوقات الكونت بيوتر اليتش المضياف المعروف والإقطاعي النبيل الثري في العصر الغابر. كان سكان المحافظة يجيئون كلهم إليه، فيرقصون ويمزحون كثيرا"، على أصوات الموسيقى البيتية المدوية الرنانة وطقطقة الألعاب النارية الرومانية.

لربما لا تمر الآن عجوز واحدة قرب غرف القصر الإقطاعي الخالية إلا وتتنهدّت متذكرة الأزمان الخالية والشباب المنصرم. أوْ لم الكونت الولائم طويلا"، وتمشّى طويلا" رائحا" غاديا" مبتسما" ببشاشة في حشد الضيوف المتزلفين، لكن ضيعته لسوء الحظ، لم تكن لتكفيه كل حياته. لقد أفلس تماما" وذهب إلى بطرسبورغ للبحث عن عمل وتوفي في غرفة الفندق، قبل انتظار أي قرار. اشتغل تومان خادما" عنده ومنح حريّته إبّان حياة الكونت. كان امرؤ يناهز السبعين، ذا وجه سليم لطيف، لا تفارق الابتسامة ثغرة تقريبا"، ويبتسم كما يبتسم الآن ابناء العهد الكاترياني وحدهم بحسناة ووقار، وإذا تحدّث حرّك شفتيه وأطبقها ببطء ضّيق، بين عينيه برقة، وخن قليلا" عند النطق بالكلمات. كان يمخط وينشق النشوق بلا عجالة أيضا" كما لو أنه قام بعمل. بدأت الحديث – حسنا"، ماذا فعلت ميخائيلو سافيليتش، هل اصطدت السمك؟

ها هو، تفضّل وانظر في السلة، سمكتان من ذئب البحر وخمس من الشبوط .... أره يا ستيبكا.

سألته – كيف حالك يا ستيبان؟

أجاب ستيبان متلجلجا" – أ .... أ ... أ .. لا .... لا بأس، يا سيدي، قليلا" نوعا" ما، كأن ثقلا" معلقا" في لسانه.

وميتروفان معا" في الصحة؟

معافى بالتأكيد ... بالتأكيد، أيها السيد.

تنحى المسكين جانبا" .

بدأ تومان الحديث –

الحال رديئة، شيء ما يعض، قيظ مؤذ، السمك كله اختبأ تحت الشجيرات، يغفو ... أعطني دودة يا ستيبا. (أخرج ستيبوشكا دودة ووضعها على راحته وربت عليها مرتين تقريبا" ووضعها بالصنارة وبصق ثم ناولها لتومان) شكرا" لك يا ستيبا ... استطرد في كلامه ووجهه إلي، أتقوم بالقنص؟

كما ترى

حسنا" ... وما نوع هذا الكلب الذي عندك أهو إنكليزي أو كور لاندي؟

أحب العجوز بهذا السؤال أن يبين: يعني نحن نعيش في العالم أيضا" !

لست أدري أي نوع، ولكنه جيد.

حسنا" ، وهل تود السفر مع الكلاب؟

لدي زمرتان منهما.

ابتسم تومان وهز رأسه.

هكذا الحال بالضبط: واحد هاو للكلاب، وآخر لا شأن له بها ولو أعطيت له هبة. أكثر الكلاب، «أعني ينبغي الإحتفاظ بها لأهميتها شريطة أن يسير كل شيء وفق النظام: والخيول تسير وفق النظام والصيادون ينبغي أن يسيروا وفق النظام وكل شيء. كان الكونت المرحوم – أدخله الله فسيح جناته – لا يعترف قط، بأنه صياد، ومع ذلك احتفظ بالكلاب، وسمح بالسفر زهاء مرتين في العام. يتجمع الصيادون في الفناء ويرتدي كل منهم قفطانا" أحمر مقصّبا"، ينفخون في البوق، ويتفضل صاحب السعادة بالخروج، يقتادون جواد صاحب السعادة ويقدم له الزمام في القبعة. يتفضل صاحب السعادة ويضرب بالسوط فيزعق الصيادون ويتحركون خارج الفناء. يسير سائس الخيل أما وراء الكونت، ويمسك كلبين من كلاب السيد الأثيرة لديه بمقودين حريريين ويراقب على هذه الشاكلة، أو أتدري ... يجلس هو، أعني السائس على سرج قوزاقي مرتفع، محمر الخدين للغاية، وينقل بصره ويقود ... حسنا"، ولا ريب في وجود الضيوف في مثل تلك الحالة. وتراعى المسرات والتشريفات أيضا" ... وأضاف فجأة ساحبا" الصنارة – آه، سقطت، أنا الجلف !

سألته – لماذا يقولون إن الكونت عاش عصره على مرامه؟

بصق العجوز على الدودة ورمى الصنارة.

كان إقطاعيا" ثريا" معروفا". يمكن القول أن أكبر وجهاء بطرسبورغ، كانوا يترددون عليه. كانوا يجلسون حول المائدة

ويأكلون وعليهم أشرطتهم الزرق، وكان يضيفهم السيد كما ينبغي. كان أحيانا" يدعوني ويقول: «تومان مطلوب منك غدا" أن تجلب سمك الحفش الصغير الحي ! مر بالحصول عليه، أتسمع؟» «سمعا" وطاعة يا صاحب السعادة». كانت تخاط القفاطين، ويُحضر الشعر المستعار والعصي والعطور والكولونيا من أفخر الأنواع وعلب النشوق واللوحات الكبيرة التي أوصى عليها من باريس نفسها. تقام الوليمة، يا إلهي، إنها لأعجوبة الحياة! تجري الألعاب النارية والتنزه بالعربات، بل حتى تطلق النار من المدفع. يبلغ عدد الموسيقيين الموجودين وحدهم أربعين نفرا"، وعنده قائد فرقة موسيقية ألماني، لقد اغترّ هذا الألماني كثيرا"، أراد أن يتناول طعامه مع الأسياد حول مائدة واحدة، فأمر صاحب السعادة بطرده وانصرف، الله معه: قال السيد إن لدي موسيقيون يفهمون عملهم. من الجليّ: إنها سلطة السيد. ظلوا يرقصون، يرقصون إلى الفجر، لا سيما رقصة لاكوسيز ... ما ترادور .. أ .... أ ... أ .. اصطادت أيها الأخ ! (سحب العجوز من الماء سمكة صغيرة من ذئب البحر) خذ يا ستيبا. تابع كلامه ورمى الصنارة ثانية – كان سيدا" كما ينبغي أن يكون السيد – وكان حسناً النفس أيضا" . يصادف أحيانا" أن يصفعك، ثم تتطلع إليه وإذا به قد نسي. كان عنده نساء، ويل من أولئك النسوة، وليغفر لي الرب ! إنهن اللواتي أفضين به إلى الإفلاس. أترى لقد انتقى معظمهن من الطبقة الدنيا. من الجلي، ماذا يردن أكثر؟ كلا، يجب أن تقدم لهن أغلى ما هو موجود في أوروبا كلها ! ومع ذلك يقلن لماذا لا نعيش متمتعات كما يحسناً لنا، إنها مشيئة السيد .. لكن شريطة ألا تفضي به إلى الإفلاس. كانت إحداهن بالذات، اسمها أكولينا – توفت الآن رحمها الله – فتاة خشنة وابنة رئيس الفلاحين، يا لها من حقودة ! كانت تضرب الكزنت على خديه أحيانا"، لقد سحرته تماما" . قامت

بإرسال ابن أخي كمجند لأنه رمي الشكولاته على ثوبها الجديد. و لم تبعثه للجندية وحده. أجل ... وأضاف العجوز وهو يتنهد تنهدًا" عميقا"، ومع ذلك كان زمانا" قصيرا" حسناً"، ثم أطرق وسكت.

بدأت الكلام بعد برهة صمت وجيزة – أجد أن سيّدكم ذاك كان صارما"؟

عارضني العجوز، وهو يهز رأسه – كان ذلك من الأمور المألوفة آنئذ".

علقت دون أن أحول طرفي عنه – الآن لا يفعلون هذا.

نظر إلي نظرة جانبية.

غمغم قائلا"، ورمى الصنارة بعيدا" – الآن بالتأكيد أفضل.

جلسنا في الظل، لكن الجو كان خانقا" في الظل، بدا وكأن الهواء الثقيل القائظ قد همد، ظل الوجه المتوهج يفتش كئيبا" عن النسيم، لم تكن ثمة من انسام، سفعت الشمس من السماء الداكنة الزرقة المعتمة، إصفرت حقول الشوفان على الشاطئ المقابل لنا تماما"، نما نبات الشيح في أماكن شتى، لم تتمايل ولو سنبلة واحدة. وقف حصان أحد الفلاحين في مكان قليل الإنخفاض في النهر وحرك ذيله الرطب بخمول، كانت ترتفع بين الفينة والأخرى سمكة غير كبيرة تحت الشجيرة الناشئة، مطلقة الفقاعات، هابطة بهدوء إلى القعر، مخلفة تموجات خفيفة وراءها.

الجنادب تصرصر في الأعشاب الضاربة إلى الحمرة، السُمانيات تصيح بتثاقل، البواشق تحلق بيسر فوق الحقول وغالبا" ما تعود لتتوقف

في مكانها، ملوحة بأجنحتها في سرعة وناشرة ذيلها كالمروحة. جلسنا بلا حراك، وقد أخمدنا القيظ، علت خلفنا فجأة ضجة في المسيل، وإذا بامرئ يهبط إلى الينبوع.

تطلعت وإذا بي أرى فلاحاً عمره يناهز الخمسين مغبراً، يرتدي قميصاً وخفاً، يحمل حقيبة مضفورة وعلى كتفه سترة. إقترب من الينبوع، شرب بشراهة ونهض.

صاح تومان عندما نظر إليه – وي، فلاس؟ مرحباً أيها الأخ، من أين جئت إلينا؟

قال الفلاح وهو يتقدم نحونا – مرحباً. ميخائيلو سافيليتش، جئت من بعيد.

سأله تومان – وأين كنت في أثناء غيابك؟

سافرت إلى موسكو، إلى السيد.

لماذا؟

ذهبت أطلب شيئاً.

وماذا تطلب؟

أن يخفّف الجزية، أو أن أشتغل عنده بالسخرة، أو أن يجعلني أعمل في قطعة أرض أخرى، أو أي شيء .. لقد مات ولدي، ولا أقدر على أداء العمل وحدي الآن.

وهل مات ابنك؟

أضاف الفلاح – مات، وقال بعد هنيهة صمت، كان المرحوم في موسكو، عاش حوذيا"، ولا بد من القول، أنه كان يدفع الجزية بدلا" مني.

وهل تعمل الآن بدفع الجزية؟

أدفع الجزية.

وماذا قال سيدك لك؟

السيد؟ لقد طردني ! يقول كيف تجرأت على أن تأتي إلي مباشرة.

و لم. وجُد الوكيل، ويقول كان يجب أولا" أن تخيّر الوكيل .. وإلى أين أنقلك؟ يقول ينبغي أولا" أن تدفع ما تبقى عليك من دين. استبد به الغضب كليا".

حسنا"، وماذا حدث، هل قفلت راجعا"؟

رجعت، أردت أن أتدبر الأمر، وأرى إن كان المرحوم قد ترك وراءه شيئا"، فلم أجد أي شيء، قلت للسيد: «أنا، يعني، والد فيليبوف».

وقال لي «ولماذا يجب أن أعرف؟ وقال إذا لم يترك لك ابنك شيئا"، فأنت ما زلت مدينا" لي». حسنا"، وهكذا عدت أدراجي.

حدثنا الفلاح عن القضية كلها بشكل ساخر، كما لو كان الحديث يدور حول شخص آخر، ولكن جالت دمعة في عينيه الصغيرتين المنقبضتين، وارتعشت شفتاه.

وماذا ستفعل، هل تذهب الآن إلى البيت؟

إلى أين إذن؟ طبعاً" إلى البيت. إن زوجتي، على ما أعتقد – قد تضوّرت الآن جوعاً".

وقال ستيبوشكا فجأة – ينبغي عليك ... بعدئذ ... لكنه ارتبك ولزم الصمت ثم أخذ ينقب في القدر.

تابع تومان الكلام ونظر بشيء من الاستغراب إلى ستيبا – وهل تذهب إلى الوكيل؟

ولماذا أذهب إليه؟ .... أنا مدين في كل الأحوال. ممرّض ابني سنة قبل موته، وهكذا لم يدفع القسط ... المصيبة ليست كبيرة بالنسبة لي، فلا شيء عندي يأخذونه ... لا نفع يرجى من ذلك مهما تكن داهية هنا، إن رأسي غير مسؤول ! (وضحك الفلاح) مهما يكن حاذقاً"، كينيتليان أوسيمينيتش، فالأمر ...

ضحك فلاس مرة أخرى.

قال تومان وكان كلامه متقطعاً" – ماذا؟ هذا سيء، أيها الفلاح فلاس.

وما هو الشيء السيء؟ أوليس ... (تقطع صوت فلاس) ثم تابع قائلاً" وهو يمسح وجهه بكمه – يا له من قيظ.

سألته – من هو سيدك؟

الكونت فاليريان بيتروفيتش.

ابن بيوتر أليتش.

أجاب تومان – ابن بيوتر أليتش، أعطاه المرحوم بيوتر أليتش القرية التي يعيش فيها فلاسوف، إبان حياته.

وهل هو في صحة جيدة؟

أجاب فلاس – موفور العافية والحمد الله، يا له من متورد، وأصبح وجهه يبدو بارزا".

واصل تومان الحديث ووجهه إلي – على أي حال أيها السيد الوضع حسن قرب موسكو، بينما هنا يختلف الأمر عندما تدفع الجزية.

وكم مقدار الجزية عن كل منزل؟

تمتم فلاس – خمس وتسعون عن كل منزل.

حسنا"، أنت ترى: إن الأرض صغيرة، غابة السيد كبيرة فحسب.

علق الفلاح قائلا" – حتى تلك الأرض يقولون لقد باعها.

حسنا"، انظر ... ستيا، اعطني دودوة ... ها ستيبا؟

مالك، هل أنت نائم؟

انتفض ستيبوشكا. جلس الفلاح قربنا. وأخلدنا إلى الصمت مرة ثانية، بدأ شخص ما يغني في الشاطئ الآخر.

ويا لها من أغنية شجية .... غشت الكآبة فلاس المسكين ...

بعد نصف ساعة، افترقنا.

طبيب المنطقة

أصبت بالرشح ذات مرة في الخريف، في طريق عودتي من الغيط الذي غادرته فتوعّكت صحتي. ومن حسن الحظ أن حرارتي لم ترتفع إلا حينما بلغت مركز المنطقة، أرسلت في طلب الطبيب إلى الفندق.

بعد مضي نصف ساعة وصل طبيب المنطقة، كان شخصاً" قصير القامة، نحيفاً"، ذا شعر أسود ... كتب لي وصفة مألوفة منضّحة للعرق، أوصى بوضع لصقة خردل، دسّ بمهارة في طرف كمه ورقة من فئة الخمسة روبلات. لكنه سعل بجفاف في تلك الأثناء وحدّق في الزاوية، كان مزمعاً" كلياً" على الذهاب إلى بيته، بيد أنه اتّفق له وشرع في الحديث ثم مكث معي. أنهكتني الحرارة، وتوقعت ليلة مسهّدة، كنت مسروراً" أن أتجاذب أطراف الحديث مع هذا المرء الحسناً. قدموا لنا الشاي، وانطلق الطبيب في الكلام. لم يكن بالفتى الغبي، كانت تعابيره تتسم بالحيوية وطرافة الأسلوب. يا لغرابة الأمور التي تشهدها الدنيا، تعيش أحياناً" مع امرئ ردحاً" طويلاً" وتربطك به علاقات ودية، ومع ذلك لا تتكلم معه ولو لمرة واحدة، بصراحة ومن أعماق روحك، وأحياناً" ما تكاد تتعرف تواً" على امرئ آخر حتى يكشف لك أو تكشف له كل ما تنطوي عليه النفس من خفايا، ولكأنه يقوم بضرب من الإعتراف، لا أدري كيف إستأهلت ثقة صاحبي الجديد، بيد أنه، دونما سبب، «بادر» كما يقولون، يروي لي حادثة رائعة

حقا"، وها أنا ذا الآن أجعل القارئ الكريم على علم بهذه الحكاية وأبذل جهدي كيفما أستعمل عبارات الطبيب ذاتها.

طفق يتحدث بصوت واهن مرتعش (وذلك هو التأثير الذي يتركه تبغ البتولا الصافي) – هل صادف وتعرفت على القاضي المحلي، بافل لوكيتش؟ ... لست تعرفه ... حسنا"، الأمر سيان. (تنحنح، ومسح عينيه) حسنا"، إذا سمحت أن ترى، فالقضية على هذه الصورة، ما عساي أن أقول، كيلا أقع في الخطأ، حدث ذلك في فترة الصوم الديني وإبّان ذروة ذوبان الثلج، كنت أجلس عنده، لدى قاضينا وألعب بالورق معه لعبة البرفرانس ... إن قاضينا امرؤ حسناً، يهوى لعبة البرفرانس. وفجأة (يستعمل الطبيب غالبا" كلمة فجأة) قالوا لي: ثمة شخص يسأل عنك. قلت وماذا يروم؟ يقولون جلب رسالة مختصرة، لا بد أن تكون من مريض.

قلت هاتوا الرسالة. وفعلا" كانت من مريضة ... حسنا"، لا بأس، إنها مورد رزقنا كما تدري ... وصفوة القضية أن: ملّاكة أرملة كتبت تقول إن ابنتي تحتضر، هلم إلينا، من أجل الله، وقد بعثت الخيل لك.

حسناً، كل هذا مألوف لدينا .. كانت تعيش على مسافة عشرين فيرستا من المدينة، أمسى الوقت ليلا" في الخارج ويا لها من طرقات !

يا إلهي ! زدْ على ذلك إنها إمرأة فقيرة، ولا يمكن أن أتوقع منها أكثر من روبلين، بل حتى ذلك المبلغ مشكوك فيه، لعلها ستعطيني قطعة قماش وشيئا" من الجريش بدل الدفع، لكن مما لا ريب فيه أن الواجب – كما تدري – قبل كل شيء، فهناك إنسان يحتضر. أعطيت فجأة أوراق اللعب إلى كاليوبين، عضو لجنة المنطقة، وتوجهت إلى البيت، ألقيت نظرة: وإذا بعربة صغيرة تقف أمام السقيفة، مع جوادين،

من خيول الفلاحين، مكترشين، ومكترشين بإفراط، أما الصوف الذي عليهما فلباد حقيقي، والحوذي جالس دون قبعة إحتراما" لي. حسنا"، فكرت في دخيلتي، من الجلي، يا أخانا إن أسيادك ليسوا واسعي الثراء، حسنا" سوف تضحك، ومع ذلك أقول لك: إن أمثالنا من فقيري الحال، عليهم أن يدركوا كل شيء حق الإدراك ... إذا كان الحوذي يجلس كالأمير ولا يخلع قبعته ويبتسم، زيادة على ذلك، من تحت لحيته ويلهو بالسوط – فيمكنك أن تراهن حينئذ على دفع ستة روبلات ! لكن، رأيت في تلك الحالة، رأيت، إن الأمر مغاير لذلك تماما". ومع ذلك، لم يكن في اليد حيلة: الواجب قبل كل شيء.

أخذت معي بعض الأدوية الضرورية وذهبت. أتصدقني، لقد وصلت بمشقة فائقة. إنه لطريق جهنمي: جداول، ثلوج، أوساخ، وهاد، وهناك فجأة انهارت قنطرة – بالمصيبة ! على كل حال وصلت أخيرا" ... البيت صغير مغطّى بالقش. النوافذ مضاءة، مما يعني أنهن ينتظرن قدومي.

استقبلتني عجوز محترمة ترتدي قلنسوة «ابتدرتني قائلة، أنقذها إنها تحتضر» قلت «أرجو ألا يستبد بك القلق .. أين المريضة»؟ «ها هنا، تفضل». رأيت غرفة نظيفة، ثمة مصباح في الركن، وعلى السرير فتاة يناهز عمرها العشرين، فاقدة الوعي، تتّقد من ارتفاع الحرارة وتتنفس بصعوبة، إنها الحمى. ثمة فتاتان أيضا"، أختان فزعتان، ترقرقت الدموع في عيونهما قالتا «بالأمس كانت معافاة تماما"، تناولت الطعام بشهية، شكت في صباح اليوم من رأسها، في المساء باتت فجأة في هذه الحالة ...» أكدت مرة أخرى: «أرجو ألا تقلقن» إنها مهمة الطب كما تعرفن، وشرعت في علاجها.

فصدَّت الدم، أمرت بوضع لصقات الخردل، كتبت لها وصفة دواء وهو مزيج من أشياء متنوعة. نظرت غليها في تلك الأثناء، أتدري أنني لم أر، وأيم الله. نظيرا" لذلك الوجه قط .... وصفوة القول كانت غادة حسناء ! أخذتني الشفقة عليها كثيرا" . يا لتلك القسمات الجميلة، ويا لتلك العيون ... حسنا" ، الحمد لله، أنها إرتاحت، تصبب منها العرق، وكانها قد عادت إلى وعيها، أجالت النظر فيما حولها، ابتسمت، مرّت بيدها على وجهها ... انحنت أختاها نحوها وسألتاها «كيف أنت؟» «قالت لا بأس» ... نظرت إليها وإذا بها قد أغفت. قلت: حسنا" ، من الضروري الآن توفير الراحة للمريضة. خرجنا عندئذ جميعا" على أطراف أصابعنا، ظلت وصيفة واحدة معها من أجل الحيطة. كانوا قد أعدّوا السماور في غرفة الاستقبال، وقنينة نبيذ الروم، هذا شيء لا بد منه في عملنا. شربت الشاي، عرضن علي أن أقضي الليلة عندهن ... أعربت عن موافقتي، فأنّى لي الآن أن اذهب ! ظلت العجوز مضطربة: «قلت لها، ما بالك؟ ستبقى حية ترزق، أرجو ألا يساورك القلق، من الأفضل أن ترتاحي أنت أيضا" ، فالساعة الآن تجاوزت الثانية» ، «ولكن مُرْ بإيقاظي إذا دعت الحاجة» «سآمر، سآمر» ذهبت العجوز، وسارت الفتاتان كذلك شطر غرفتهما، أما أنا فقد وضعوا لي فراشا" في غرفة الضيوف. اضطجعت، بيد أنني لم أستطع النوم، يا للعجائب !

يبدو أن التعب أضناني. لم تكن مريضتي لتبارح بالي قط. أخيرا" لم أطق صبرا" ، نهضت فجأة، فكّرت لم لا أذهب وألقي نظرة على حالة المريضة؟ إن غرفة نومها مجاورة لغرفة الاستقبال. حسنا" ، فتحت الباب الهوينى، كان قلبي يخفق خفقا" قويا" ، نظرت فوجدت الوصيفة نائمة وقد فغرت فاهها، بل إنها كانت تشخر، يا لها من ماكرة !

رقدت المريضة مولية وجها" صوبي، يداها مفترقتان، يا للمسكينة ! دنوت منها ... فتحت فجاة عينها، وحدقت بي ! .... «من هذا؟» تملكني الإرتباك «قلت، لا تخافي أيتها السيدة، أنا الطبيب، جئت لأرى كيف حالك» «أنت الطبيب؟» – «أجل، الطبيب، الطبيب، لقد أرسلت والدتك في طلبي إلى المدينة، وقد فصدت لك الدم، أيتها السيدة، أرجوك أن تهجعي الآن، وبعد ما يقارب اليومين ستمشين على قدميك بمشيئة الله». «آه، أجل، يا دكتور، لا تتركني أموت ... أرجوك، أرجوك». «ما هذا الكلام، حفظك الله !»، يبدو أن الحرارة ارتفعت ثانية. جسست النبض، وبالفعل كانت حرارتها مرتفعة، رنت إلي، أمسكتني فجأة بيدي. «سأقول لك، لماذا لا أرغب في الموت، سأقول لك، سأقول لك .... إننا الآن وحدنا، ولكن أرجوك، ألّا تبح لأحد .... أصغ إلي ...» إنحنيت قليلا"، دنت بشفتيها على مقربة من أذني مباشرة، مس" شعرها خدي، وأقول الحق، إن رأسي أخذ يدور، بدأت تتكلم همسا" ... لم أفقه شيئا" ... أواه، كانت في حالة هذيان .... همست، وهمست برشاقة بالغة كما لو كانت لا تتحدث بالروسية، انتهت من الهمس، ارتعشت، طرحت رأسها على الوسادة، هدّدتني بإيماءة من إصبعها حذار يا دكتور، لا تقل لأحد ....» عملت على تهدأتها بشكل ما، أعطيتها ماء لترتوي، أيقظت الوصيفة وخرجت.

شمّ الطبيب حينئذ النشوق بقوة، وغشاه الذهول للحظة.

استطرد يقول – ومع كل ذلك لم تتحسن حالة المريضة في اليوم التالي، بعكس ما كنت أتوقع، أعملت فكري في الأمر وقررت البقاء فجأة، رغم وجود مرضى آخرين بانتظاري ... أتدري، يجب أن أوليها عنايتي وإلا كان وزر ذلك على الممارسة. ثم إن المريضة أولا"،

كانت في حالة قنوط حقا"، وثانيا" ينبغي قول الحقيقة، شعرت بميل قوي نحوها. زد° على ذلك أن العائلة كلها كانت موضع إعجابي، علما" أنهم ليسوا بالناس الأثرياء، ولكنهم مثقفين ثقافة – يمكن القول – نادرة المثل .... كان أبوهم عالما" ومؤلفا"، مات فقيرا" بالطبع، ومع ذلك استطاع أن يثقّف الأطفال ثقافة ممتازة، وترك كثيرا" من الكتب أيضا".

إني لأجرؤ على القول أنهم حسبوني في هذا البيت شخصاً قريباً لهم، لست أدري، أ لأنني اعتنيت جاهدا" بالمريضة أم لأسباب أخرى؟ ... غدا الطريق في تلك الأثناء رهيبا" بسبب الأوحال. انقطعت جميع المواصلات تماما" وحتى الدواء لم نحصل عليه من المدينة إلا بمشقة، لم تتماثل المريضة إلى الشفاء ... مضى يوم إثر يوم، ويوم بعد يوم: ... لكن ... بعدئذ ... (سكت الطبيب هنيهة) في الحقيقة، لست أدري، كيف أروي لك .... (ونشق النشوق مجددا"، تنحنح واحتسى جرعة من الشاي).

أقول لك بغير مواربة، إن مريضتي .... كيف حدث ذلك .... لا أدري أحبتني ... أو لعلها لا، لا يبدو أنها أحبتني ... ومع ذلك ... حقا"، من يدري .. (نكس الطبيب رأسه وتخضّب وجهه بالحمرة).

استطرد في كلامه بحيوية – كلا، كيف يمكن أن تحبني ! على المرء أن يعرف قدر نفسه أخيرا"، كانت فتاة مثقفة ذكية، كثيرة المطالعة، أما أنا فأستطيع القول إني نسيت اللاتينية تماما". وهيئتي (وتطلع الطبيب مبتسما" إلى نفسه) لا تدعو على ما يبدو إلى التباهي أيضا". لكن الله عزّ وجل لم يمسخني أحمق، فإني لا اسمي الأبيض أسود، وأدرك بعض الأشياء كذلك. لقد فهمت جيدا"، على سبيل المثال،

أن ألكسندرا أندرييفنا – كان اسمها ألكسندرا أندرييفنا – لا تشعر بعاطفة الحب حيالي، وإنما يمكنني القول أنها تنطوي على إحساس ودّي، أو ضرب من الاحترام نحوي. لربما هي نفسها، جانبت الصواب في هذا الصدد، لقد كان وضعها غير طبيعي، وتأمل أنت نفسك الأمر مليا" ... وأردف الطبيب – الذي كان يفوه بكل ذلك الكلام المتقطع دون أن يلتقط أنفاسه وبارتباك جلي – لكن، يلوح لي، أن الأحداث اختلطت في سردي لها و لم تفقه شيئا" ... حسنا"، اسمح لي أن أروي لك الأحداث بانتظام.

أكمل شرب قدح الشاي كله، وتحدّث بصوت أكثر هدوءا".

لنبدأ من جديد إذن. أمسى حال مريضتي أسوأ فأسوأ. إنك لست طبيبا" يا سيدي الكريم، ولا يمكنك أن تدرك ما يجري في نفسي، أنا الطبيب، ولا سيما في الأيام الأولى، عندما بدأت أحسّ أن الغلبة للمرض. أين توارت الثقة بالنفس ! يتغلب عليك الوجل فجأة لدرجة لا تستطيع معها قول شيء. وهكذا يُخيّل لك أنك نسيت كل ما تعرفه وأن مريضك لا يثق بك، وأن الآخرين بدأوا يلاحظون ضلالك ويخبرونك بأعراض المرض كارهين، عابسين متهامسين ... آه، لبئس الحال !

تظن ثمة دواء لعلاج هذا المرض وحسبك العثور عليه، وها قد توصّلت إليه؟ تجربه – كلا ما هو بالدواء المطلوب ! لا تترك المدة الضرورية ليظهر تأثير الدواء كما ينبغي .. تظل تتشبث تارة بهذه الوصفة وتارة أخرى بتلك، تتناول أحيانا" كتاب تحضير الأدوية ... وتفكر هذا هو بالضبط، هذا هو ! حقا"، تخبط أحيانا" خبط عشواء، وتظن عسى ولعل القدر يسعفه .. يحتضر المريض في تلك الأثناء،

ورُب طبيب آخر بمستطاعة إنقاذه. تقول إن مشورة الأطباء ضرورية، ولا أريد أخذ المسؤولية على عاتقي. وأي أحمق تبدو في مثل هذه الحالات ! لكن توطن نفسك عليه مع مرور الوقت. قضى المريض نحبه – لا جريرة لك في ذلك، لقد تصرّفت بمقتضى التعليمات. لكن ثمة شيء يعذب روحك: ترى ثقة عمياء بك، بينما أنت تشعر أن لا حول لك ولا قوة، وضعت عائلة الكسندرا أندرييفنا مثل تلك الثقة بالذات في: وأنت تفكر لعلهم تناسوا أن ابنتهم بخطر. وأنا، من جهتي كنت أطمئنهن أيضا"، بينما فؤادي يتخلع في داخلي فرقا" .. وتتويجا" لهذه التعاسة، أمست الطرقات موحلة لدرجة أن الحوذي يستغرق ذهابه أحيانا" يوما" برمته كي يأتي بالدواء.

لم أفارق غرفة المريضة، لم أستطع الابتعاد عنها، رويت لها، أتدري، حكايات مضحكة متنوعة ولعبت معها الورق. كنت أسهر الليل. العجوز تعرب عن امتنانها لي والعبرات تجول في عينيها، وأنا أفكر في سريرتي: «لست أهلا" لشكرك». أعترف لك جهارا" ما من شيء يحملني على الكتمان الآن – لقد عشقت مريضتي – وتعلقت ألكسندرا أندرييفنا بي: كانت لا تسمح لأحد غيري بالدخول إلى غرفتها. شرعت تتحدث معي، وتسألني أين درست وكيف أعيش ومن هم أقربائي وعند من أذهب؟ كنت أشعر أنه لا يجوز لها أن تتحدث، و لم أستطع، أتدري، أن أمنعها، أن أمنعها منعا" باتا". كنت أحيانا" أمسك برأسي قانطا" وأقول: «ماذا تفعل أيها الوغد؟ ....» كانت تتناول يدي وتحتفظ بها بين يديها وتحدق بي، طويلا" طويلا"، ثم تشيح بطرفها وتتأوه قائلة: «يا لك من فتى حسناً !» إن يديها متوقدتان، وعينيها واسعتان ساجيتان. «كانت تقول، أجل، أنت حسناً، امرؤ صالح، لست كجيراننا ... كلا، لست مثلهم ...

ترى لماذا لم أعرفك قبل الآن !» «أقول لها – ألكسندرا أندرييفنا أنعمي بالطمأنينة ... كوني على يقين أشعر أنني لا أعرف، كيف أستأهل ... كوني فقط مطمئنة، بالله عليك كوني مطمئنة ... كل شيء سيكون على ما يرام، ستكسبين الشفاء ». استطرد الطبيب وقد انحنى قليلا" إلى الأمام ورفع حاجبيه إلى الأعلى – ومع ذلك لا محيص من القول أن العائلة لم تعاشر الجيران إلا قليلا"، لأن الذين أقل منهما ماديا" ليسوا ندا" لهما، ويمنعها آباؤها عن الاختلاط بالأثرياء. أقول لك: كانت العائلة واسعة الثقافة، كما أخبرتك وقد سرَّني مثل ذلك الإطراء. كانت تتناول الدواء من يدي فحسب ... تنهض المسكينة بمساعدتي، وتشرب الدواء وهي ترنو إلي .... وقلبي يغوص بين ضلوعي. كانت حالة المريضة تزداد سوءا" على سوء في تلك الأثناء، حسبت أنها ستموت، لا محالة. تأكد كان من الأهون علي أن أرقد أنا نفسي في التابوت، حينئذ شرعت الأم وأختاها يتتبعن أعمالي، يتطلعن إلى عيني ... وتوارت الثقة، «كيف حالها؟ كيف هي؟» «لا بأس، لا بأس !» ويا لها من لا بأس تفوهت بها، أن العقل ليختل منها. أخذت ذات مرة مجلسي قرب المريضة وحدي في الليل، تجلس الوصيفة هناك أيضا" وتشخر بكل ما أوتيت من قوة ... لكن لا يمكن مؤاخذة الوصيفة البائسة، فلا قدرة لها على العمل. كان وضع ألكسندرا أندرييفنا تلك سيئا" للغاية إبان المساء. لقد أنهكتها الحرارة. ظلّت تتقلّب حتى منتصف الليل، وأخيرا" يبدو أنها استسلمت للنوم أو بالأحرى لم تعد تتحرك. ما فتئ المصباح في الركن مضاء" أمام الأيقونة. أتدري، نكست رأسي وأنا جالس وداعب الكرى عيني أيضا" . فجأة وكأن أحدا" لكز جنبي، التفت .... رباه، يا إلهي ! ألكسندرا أندرييفنا تنظر إلي وعيناها مفتوحتان على وسعهما ... شفتاها منفرجتان، وجنّتاها متوقّدتان «ما بالك؟» «هل أنا أحتضر

يا دكتور» «أسألك المغفرة يا إلهي» «كلا، يا دكتور، كلا، أرجوك، لا تقل أني سأظل على قيد الحياة ... لا تقل ... إذا كنت تدري .. فاسمعني، ولا تخفِ. حالتي الحقيقية عني، بالله عليك ! وأخذت أنفاسها تتلاحق بسرعة – لئن عرفت، إنني سأقضي نحبي لا محالة، فسأحدثك دون شك، بكل شيء حينئذ، بكل شيء !» «ألكسندرا أندرييفنا، أطلب صفحك !» – «أصغ، إلي، لم أنم قط، إنني أتطلع إليك منذ فترة .... بالله عليك ... إنني أثق بك، فأنت امرؤ حسناً، أنت امرؤ شريف، أستحلفك بكل ما هو مقدس في العالم، قل لي الحقيقة ! ليتك تعرف، كم هذا مهم لدي ... أستحلفك بالله، قل لي يا دكتور، هل أنا في خطر؟» «وماذا أستطيع أن أقول ألكسندرا أندرييفنا، اغفري لي !» «بالله عليك، أتضرّع إليك» ! «ليس بوسعي إخفاء كونك في خطر محيق ألكسندرا أندرييفنا ، ولكن الله رحيم ...» «إنني أحتضر، إنني أحتضر ...» بدت وكأنها مستبشرة، غشي السرور وجهها، واستبدّ بي الخوف. «لا تخف، لا تخف، إن الموت لا يفزعني أبدا"». نهضت فجأة واتّكأت على مرفقها، الآن ... حسنا"، الآن أستطيع أن أعرب لك عن عميق امتناني، أنت امرؤ حسناً، صالح، وإني لأحبك ... تطلعت إليها كالمخبول، أتدري لقد تملكني الرعب ... «أتسمع، إنني أحبك ...» «ألكسندرا أندرييفنا، كيف بتُّ جديرا" بحبك !» «كلا، كلا، أنت لا تفهمني .... أنت لا تفهمني ....» مدت إلي يديها فجأة، أمسكتني من رأسي وقبلتني ... أتصدقني كدت أصرخ إلا قليلا" .. إرتميت على ركبتي وخبأت رأسي في الوسادة .. أخلدت إلى الصمت، ارتعشت أصابعها المنسابة بين شعري، سمعتها تبكي. شرعت بمؤاساتها وإقناعها ... حقا" لست أدري ما الذي قلته لها، قلت «ألكسندرا أندرييفنا، ستوقظين الوصيفة ... أشكرك ... ثقي ... كوني هادئة البال» – «تكلمت

مؤكدة: حسبك، حسبك، دعهم وشأنهم، حسنا"، سوف يستفيقون من النوم، حسنا" سيأتون: الأمر سيّان، سأموت ... أجل، لا شيء، أخشاه، ما الذي أخافه؟ ارفع رأسك ... أو لعلك لا تحبني، ولربما خُدعت بك ... إصفح عني إذا كان هذا شأنك».

«ألكسندرا أندرييفنا ماذا تقولين؟ .... إني أحبك يا ألكسندرا أندرييفنا» حدّقت مباشرة في عيني، وفتحت يديها. «إذن، خذني بين ذراعيك ...» أقول لك صراحة، لست أدري كيف أني لم أفقد عقلي في تلك الليلة. شعرت إن مريضتي تحطّم نفسها، لم تكن في كامل وعيها، أدركت أيضا" أنها لو لم تحسب نفسها سائرة إلى حتفها لما فكرت بي كذلك، لكن ممّا لا مرية فيه، أنه لمرعب أن تموت في الخامسة والعشرين من عمرك دونما أن تحب أحدا": هذا هو الشيء الذي عذبها وبسببه، وبدافع القنوط، تشبثت بي، أتفهم الآن؟ «قلت لها ألكسندرا أندرييفنا ارحميني وارحمي نفسك أيضا" ».

قالت: «لماذا وعلام آسف؟ ألم يكتب عليَّ الموت ...» كانت تكرر ذلك باستمرار. «لو كنت أعرف، إنني سأبقى بين الأحياء وأكون مرة أخرى مع الفتيات الشريفات لتملّكني الخجل، لخجلت بالفعل .... ولكن لم الآن؟» «من قال لك أنك ستموتين؟» «ها، كلا، حسبك، لن تخدعني، أنت لا تجيد الكذب، انظر إلى نفسك» «ألكسندرا أندرييفنا، ستظلّين حيّة، سأشفيك، ونطلب من والدتك أن تباركنا، وستجمعنا عرى وثيقة، وسنكون سعيدين». «كلا، كلا، لقد أخذت منك عهدا"، لا مندوحة من الموت ... لقد وعدتني ... أنت قلت لي ....» شعرت بالمرارة، أحسست بالمرارة لأسباب شتى. واحكم أنت بنفسك كيف تؤلم الأشياء الصغيرة أحيانا": يبدو كل شيء اعتياديا"، لكن هناك ما يؤلم. خطر لها أن تسألني عن اسمي، أعني لم تسأل عن

لقبي، وإنما عن اسمي. يا للتعاسة، إن اسمي تريفون. أجل، أجل، تريفون، تريفون إيفانيتش. بينما الجميع يسمونني في البيت دكتور.

ما في اليد حيلة، قلت «تريفون، أيتها السيدة» ضيّقت ما بين عينيها وهزّت رأسها وتمتمت شيئاً" ما بالفرنسية – آه، أجل، إنه لشيء مقيت، وضحكت بعدئذ ضحكة تنم عن الاستياء أيضاً". هكذا قضيت معها الليلة كلها تقريباً". خرجت في الصباح، كالملتاث في عقله، دخلت غرفتها ثانية في النهار، بعد تناول الشاي، رباه، يا إلهي، لم أكد أعرفها، إن من يوضعون في التابوت يبدون أفضل حالاً" منها. أقسم لك بشرفي، لست أفهم الآن، لست أفهم البته، كيف تحمّلت هذا العذاب. استمرت مريضتي على هذا الوضع ثلاثة أيام بلياليها ... ويا لها من ليال ! وأي أشياء قالتها لي ! ... تصور أنت نفسك، في الليلة الأخيرة اتّخذت مجلسي بقربها وأنا أسأل الله أمراً" واحداً" فحسب: خذها بأسرع ما يمكن ... حينئذ على الفور ... ولجت أمها الغرفة فجأة .. سبق وأن قلت لها في العشية، للأم، ثمة أمل ضعيف، وضعها رديء، ولا ضير في إحضار القس. وما إن رأت المريضة أمها. حتى بادرتها القول: «حسناً" فعلت بمجيئك .. انظري إلينا كيف نحب بعضنا بعضاً"، لقد عاهدنا أحدنا الآخر» – «ما هذا الذي تتفوه به، ما لها يا دكتور؟» جمد الدم في عروقي «قلت، إنها تهذي، الحمّى ....» أجابت الفتاة: «كفى، كفى، الآن قلت شيئاً" مغايراً" تماماً"، وقبلت الخاتم مني ... فلماذا تتظاهر؟ إن أمي حسناة، إنها تصفح عنك، إنها تفهم وأنا أموت – لا داعي للكذب، أعطني يدك .....» وثبت إلى الخارج وهربت، لا ريب أن العجوز حدست الأمر.

بيد أنني لن أتعبك أكثر، وأقر لك أنه لمن المشقة عليّ أن أتذكر

ذلك. توفيت مريضتي في اليوم التالي (وأضاف الطبيب قائلاً" على عجالة ومتنهدا" !) – أدخلها الله فسيح جنانه. طلبت من أهلها قبيل الموت أن يخرجوا وأبقى وحدي معها. «قالت، اصفح عني، فلعلني مخطئة بحقك ... إنه المرض ... ولكن صدقني، لم أحب أحداً" أكثر منك ... لا تنسني .... حافظ على الخاتم .....».

أشاح الطبيب وجهه عني وأمسكته من يده.

قال، على أي حال ! دعنا نتحدث عن شيء آخر، أو إذا كانت لديك رغبة فلنلعب البرفرانس قليلاً". أتدري لا ينبغي لأمثالنا الاستسلام لتلك المشاعر الرفيعة. يجب أن يفكر أمثالنا بشيء واحد: ألّا يوصي الأطفال وألا تتخاصم الزوجة. ومنذ ذلك الحين ارتبطت بزواج شرعي كما يقولون .... ولم لا ... تزوجت من ابنة تاجر: الصداق سبعة آلاف روبل. واسمها أكولينا، وهي ند لتريفون، ولا مناص من القول، إنها امرأة شريرة، ومن حسن الحظ أنها تقضي اليوم كله نائمة ... وماذا بشأن البرفرانس؟

لعبنا البرفرانس من كوبيك واحد، ربح تريفون إيفانيتش مني روبلين ونصف الروبل، غادر المكان في وقت متأخر وهو مغتبط للغاية بفوزه.

جاري راديلوف

غالبا" ما يحتفظون في الخريف بدجاج الغابة في بساتين الزيزفون القديمة. إن مثل هذه البساتين في محافظة أورلوف كثيرة نوعا" ما.

عندما كان أجدادنا يختارون مكان سكنهم، فلا مندوحة من أن يقتطعوا حوالي هكتارين من الأرض الجيدة، قرب بستان الفاكهة، تحتوي على ممرات يحيطها الزيزفون. بعد مرور زهاء خمسين عاما" أو سبعين عاما" أقصى ما يكون، توارت هذه العزب «أعشاش النبلاء» رويدا" رويدا" عن وجه الأرض، تعفّنت الديار أو بيعت إلى آخرين.

تحولت الابنية الخارجية الحجرية إلى أكوام من الخرائب، جفّ عود أشجار التفاح وأمست أحطابا"، اضمحلت الأسوار والأسيجة. وظلّت أشجار الزيزفون وحدها تنمو حاليا" نموا" حسنا"، كما كانت في الماضي، تحيط بها الحقول المحروثة، تذيع على قبيلتنا الطائشة أعمال «الآباء والأخوات الراحلين السالفين». أي زيزفون قديم، تلك الأشجار القديمة ... لقد أبقى عليها حتى فأس الفلاح الروسي الذي لا يرحم. إن أوراقها صغيرة، بينما امتدت أغصانها الضخمة منبسطة في جميع الجهات، حيث تترامى الظلال المقيمة تحتها.

طفت ذات مرة مع يرمولاي في الحقول لقنص الحجل، رأيت على جهة بستانا" مهملا" فاتجهت إليه. وما إن دلفنا إلى مداخله حتى ارتفع

دجاج الغابة عن الشجيرة مطقطقا"، أطلقت عيارا" ناريا"، دوّت في اللحظة ذاتها صيحة على بعد بضع خطوات مني: أطلّ وجه واجف لفتاة شابة من خلف الأشجار واختفى في الحال. هرع يرمولاي إليّ. «كيف تطلق الرصاص هنا؟! هنا يعيش ملّاك».

لم أفلح في إجابته، لم يستطع كلبي، برصانته النبيلة، أن يجلب إليّ الطائر الميّت، حتى سمعت خطوات رشيقة، وخرج من الغابة امرؤ طويل القامة، له شاربان، يبدو عدم الارتياح على طلعته ووقف أمامي. اعتذرت، بقدر ما استطعت، وذكرت لقبي له. وعرضت عليه أخذ الطائر المصطاد إلى عزبته.

قال لي مبتسما" – حسنا"، سأقبل الطريدة، شريطة أن تبقى وتتناول الغداء عندنا. أقول الحق، إنني لم أسر كثيرا" لدعوته، لكن لم يكن باستطاعتي أن أرفض.

استطرد صاحبي الجديد في كلامه – أنا ملّاك من هذه البقاع، وجارك، راديلوف، لعلك سمعت بي، اليوم هو الأحد، وينبغي أن يكون الغداء عندي جيدا" وإلّا ما كنت لأدعوك.

أجبت كما يجيبون في مثل هذه الحالات، وسرت في أثره. سرعان ما أوصلنا الممر الذي تمّ تنظيفه قبيل فترة وجيزة إلى خارج غابة الزيزفون، دلفنا إلى البستان. رؤوس الكرنب الملفوفة الباهتة الخضرة لاحت بين أشجار التفاح القديمة وشجيرات عنب الثعلب النامية، التف حشيش الدِّينار التفافا" لولبيا" حول الأسدية العالية، أطلت الأغصان البنية المتشابكة مع الحمص الجاف متراصة على الأحواض. بدا اليقطين الكبير المسطّح كما لو كان يتداعى على الأرض إلا

قليلا"، إصفر القثاء المستلقي تحت الأوراق المغبرة ذات الزوايا. تمايل على امتداد السياج نبات القرّاص العالي، وفي مكانين أو ثلاثة نمت أكوام من الياسمين البري التتري، البيلسان والعليق – بقايا «الجينيات» الماضية. لاح بئر محاط بالبرك الصغيرة على مقربة من الآلة الزراعية غير الكبيرة، الملأى بالماء اللزج الضارب إلى الحمرة. طرطش البط وتحرك ساعيا" في هذه البحيرات، إرتعش جسم الكلب برمته، زرّ عينيه وقضم عظما" في المرج، وفي المكان ذاته نتفت بقرة بلقاء العشب بتراخ"، لاطمة أحيانا" ظهرها الهزيل بذيلها. إنعطف الممر جانبيا"، أطل علينا من بين الصفصاف الضخم والبتولا بين قديم رمادي صغير، سقفه مبني من ألواح الخشب ومدخله مقوّس. توقف راديلوف.

قال بحسناة وهو ينظر مباشرة في وجهي: على أية حال، لقد خطر ببالي الآن فقط، لعلك لا ترغب قط في المجيء إلي: في هذه الحالة ... لم أدعه يكمل كلامه وأكدت له، أنه على العكس، يحسناً لي جيدا" أن أتناول الغداء عنده.

حسنا" كما تشاء.

ولجنا الدار، استقبلنا في المدخل غلام شاب يرتدي قفطانا" طويلا" مصنوعا" من الكتان الأزرق السميك. أمره راديلوف أن يجلب على التو الفودكا ليرمولاي. أحنى مرافقي ظهره باحترام للمعطي السخي. دلفنا من غرفة المدخل، الملصقة بها صور مختلفة متنوعة والمغطاة بالمعينات، إلى غرفة صغيرة، وهي مكتب راديلوف، خلعت ملابس الصيد، وضعت البندقية في الزاوية، نظف فتى يرتدي سترة طويلة الأطراف، ثيابي بفرشاة.

قال راديلوف بلطف: حسنا" لنذهب الآن إلى صالة الإستقبال وسأعرفك على والدتي.

سرت في أعقابه. جلست على أريكة متوسطة الحجم في صالة الإستقبال عجوز قصيرة القامة، ذات وجه حسناً نحيف ونظرة وجلة كئيبة وكانت ترتدي فستانا" بنيا" وقلنسوة بيضاء.

حسنا"، يا أميمة، أقدم لك جاري ....

نهضت العجوز نصف واقفة، انحنت دون أن تلقي من يديها الجافتين المثبنة الصوفية السميكة التي كان شكلها كالكيس.

سألت بصوت واهن هادئ وهي ترمش بعينيها: هل تفضلت بالمجيء إلى ربوعنا منذ أمد بعيد؟

كلا، ليس منذ أمد بعيد.

هل تنوي البقاء هنا طويلا"؟

أظن، حتى الشتاء.

أخلدت العجوز إلى الصمت.

تابع راديلوف كلامه، مشيرا" إلى شخص طويل، نحيف، لم ألحظ وجوده لدى دخول صالة الإستقبال: ها هوذا، هذا فيودور ميخيتش ... حسنا"، فيديا، أرِ. فنّك للضيف. ما بالك انزويت في الركن؟

نهض فيودور ميخيتش في الحال عن الكرسي، تناول من النافذة كمانا" في حالة رديئة، أخذ القوس – ليس من نهايته كما يتأتى عليه أن

يفعل، وأنا من وسطه – أسند الكمان إلى صدره، اغمض عينيه واندفع يرقص ويترنّم بأغنية ويعزف عزفاً" سيئاً" على الأوتار. يبدو من طلعته أن عمره يناهز السبعين، تتدلّى سترته الطويلة المصنوعة من الكتّان السميك، كثيبة على أعضائه الجافة الهزيلة. أنشأ يرقص، كان يهتز تارة باندفاع، ويكاد يهمد تارة أخرى، حرّك رأسه الصغيرة الأصلع، مدّ رقبته المعرورقة، طبطب قدميه في المكان نفسه، أثنى أحياناً" ركبتيه بجهد ملحوظ. كان فمه الأدرد يطلق صوتاً" متهدّماً". لا بدّ أن راديلوف قد حدس من تعابير وجهي، إنّ «فن» فيديا لم يكن مبعث غبطة كبيرة لي.

قال له – حسناً"، حسبك أيها العجوز، تستطيع أن تذهب وتنعم بمكافأة.

وضع فيودور ميخيتش الكمان فوراً" في النافذة، انحنى لي في البداية بوصفي ضيفاً"، ثم للمرأة العجوز وبعدئذ لراديلوف، وانصرف خارجاً" لا يريم.

واصل خلي الجديد كلامه – كان ملّاكاً" أيضاً"، وثرياً" كذلك، لكنه أفلس، ها هو ذا يعيش الآن عندي ... كان يعد في زمانه من أوائل المغاوير اللامعين في المحافظة، فقد إختطف إمرأتين متزوجتين من زوجيهما، كان عنده مغنون وكان يرقص ويغني بمهارة ... ولكن ألا ترغب بشرب الفودكا؟ إن الغداء قد وضع على المائدة.

دخلت إلى الغرفة تلك الفتاة الشابة نفسها التي رأيتها عابرة في الحديقة.

قال راديلوف، وأدار رأسه قليلاً" – ها هي ذي أوليا ! أرجو أن

تكون موضع إعجابك وعطفك ... إذن، لنذهب ونتناول الغداء.

توجهنا قاصدين غرفة الطعام، وجلسنا. إبان ذهابنا من صالة الإستقبال وجلوسنا، غنى فيودوميخيتش الذي سطعت عيناه الصغيرتان واحمر أنفه من «المكافأة» «لتدو رعود النصر !» وضعوا له الصحون في الركن على منضدة صغيرة بلا فوطة. ليس بمستطاع العجوز المسكين أن يتباهى بأناقته، ولذلك وضعوه دائما" في منأى لحد ما عن الناس. رسم إشارة الصليب. ندت عنه آهة وأنشأ يأكل مثل كلب البحر. كان الغداء لذيذا" بالفعل، من صنف طعام يوم الأحد، و لم يخل من حلوى الهلام الرجراج والمعجنات الإسبانية (الفطائر). انطلق راديلوف بالأحاديث حول المائدة، وكان قد خدم عشر سنوات في فوج المشاة في الجيش، وسافر إلى تركيا. أنصت إليه بانتباه وكنت أتطلع إلى أولغا خلسة، لم تكن رائعة الجمال، لكن تعبير وجهها الرصين الهادئ وجبينها العريض الناصع وشعرها الكثيف لا سيما عيناها العسليتان الصغيرتان، والذكيتان الرائعتان الحيويتان، بوسعها أن تفتن أي امرئ آخر في مكاني.

بدت وكأنها تتابع كل كلمة تصدر عن راديلوف، لم يكن ذلك تعاطفا" منها مع الحديث، وإنما عبّر وجهها عن إنتباه متحمس. يمكن أن يكون راديلوف من حيث عمره أبا" لها وكان يخاطبها بصيغة المفرد «أنت». ولكني حدست توا" أنها ليست ابنته. وقد ورد في غضون الحديث، ذكره – لزوجته المرحومة، وعقب قائلا" «أختها» مشيرا" إلى أولغا.

سرعان ما توردت أولغا وغضت طرفها، سكت راديلوف، ثم بدّل دفة الحديث. لم تنطق العجوز أثناء الغداء بكلمة واحدة، لم تأكل شيئا"

تقريبا" و لم تعرض علي أن أتناول أي صنف من أصناف الطعام. نمّت ملامحها عن انتظار وجل قانط وعن شجن يغشى المسنين، ينكمش له قلب المشاهد متعذبا". أزمع فيودور ميخيتش في نهاية الغداء على البدء في «تمجيد» السيد والضيف، لكن راديلوف تطلع إلي وطلب منه السكوت، مرّ العجوز بيده على شفتيه، رمش عينيه، انحنى وجلس مرة أخرى، ولكن على أقصى طرف الكرسي – ذهبت مع راديلوف إلى مكتبه بعد تناول الغداء.

من الملاحظ وجود شيء مشترك وشبه ظاهري في التعامل لدى الذين تشغلهم بقوة ودأب فكرة واحدة وعاطفة واحدة، مهما كان التباين في شيعهم وقابلياتهم ووضعهم في المجتمع وتربيتهم. وكلما إستزدت من مراقبة راديلوف، خيل لي أكثر فأكثر بأنه ينتمي إلى مثل هذه الطائفة من الناس. تحدث عن الزراعة والحصاد والحش والحرب والإشاعات في المنطقة والانتخابات القريبة، تحدث عفويا"، بل وحتى بشيء من الحماسة، بيد أن تنهيدة ندت منه فجأة واسترخى في الأريكة كامرئ أضناه عمل شاق ومرّ بيده على وجهه. تبيّن أن كل روحه الحسناّة الدافئة مفعمة حناياها بشعور واحد ومشبعة به. لقد داخلتني الدهشة لأنني لم أستطع أن أكتشف لديه شغفا" لا بالطعام ولا النبيذ ولا الصيد ولا ببلابل كورس ولا الحمام المصاب بداء الصرع، ولا الأدب الروسي ولا الخيول ولا الرقص الهنغاري ولا لعب الورق أو البليارد ولا حفلات الرقص ولا السفر إلى مدن المحافظة وعواصمها ولا بمعامل الورق ومصانع سكر البنجر ولا العرائش الملونة ولا الشاي ولا المحلفين الذين وصلوا حد الفجور ولا حتى الحوذيين الذين – الله أعلم لماذا تصبح عيونهم حولاء لدى كل حركة من حركات الرقبة وتخرج من محاجرها ... فكرت قائلا" «يا له من ملّاك أخيرا" !».

على أية حال لم يتظاهر بأنه امرؤ متجهم أو غير راض" عن مصيره، وإنما على النقيض من ذلك، إذ° يلوح منه ميل خفي للإحسان واستعداد للتقرب من كل رائع وغاد، فيه حفاوة بل وشيء من الإستكانة أيضا". حقا" أنت تشعر، في الوقت ذاته، أنه غير قادر فعلا" على إقامة أواصر الصداقة والتقارب مع أي كان، ولا ترجع عدم مقدرته تلك إلى إنتفاء حاجته إلى الناس الآخرين وإنما بسبب حياته التي إنسابت إلى الداخل في حين من الاحايين. عندما أتطلع إلى راديلوف، لا أستطيع أن اتصوره سعيدا" أبدا"، سواء حاليا" أو في أي وقت من الأوقات، لم يكن وسيما" أيضا"، لكن في نظرته وابتسامته وفي كل كيانه يكمن شيء ما جذاب للغاية، وبالذات يكمن، هكذا لاح لي، ورغبت الاستزادة في معرفته، والشعور بالحب نحوه. يتكشف دون ريب عن ملاًك وشخص جلد أحيانا"، ومهما يكن الأمر. فهو امرؤ مجيد.

كنا على وشك البدء في الحديث عن زعيم جديد للمنطقة، إذ° رنَّ فجأة صوت أولغا في الباب قائلة:

«الشاي جاهز». ذهبنا إلى صالة الضيوف. اتّخذ فيودور مجلسه في الركن الصغير كالسابق بين النافذة والباب ولملم قدميه بتواضع. كانت أم راديلوف تحوك جوربا". فاحت من البستان عبر النوافذ المفتوحة، طراوة خريفية ورائحة التفاح.

أدارت أولغا الشاي بمثابرة. نظرت الآن إليها باهتمام كبير أكثر مما فعلت إبان الغداء. تكلمت قليلا" للغاية كعادة فتيات الأقاليم عموما"، لكنني لم ألحظ لديها، على الأقل، رغبته في أن تقول شيئا" ما جيدا"، رغم الشعور الموجع بالتفاهة والعجز الذي يخامرها، لم

تكن لتتنهد كأنما بسبب فيض الإحساسات الغامضة، لم تحرك عينيها إلى الأعلى من تحت جبينها أو تبتسم إبتسامة حالمة غامضة.

نظرت بهدوء ولا مبالاة، كشخص شرع يرتاح من سعادة كبيرة أو قلق كبير. كانت مشيتها وحركاتها حازمة وطليقة، لقد كنت معجبا" بها للغاية.

تجاذبنا أطراف الحديث مرة أخرى أنا وراديلوف. لم أعد أذكر السبيل الذي أفضى بنا إلى الملاحظة التالية: غالبا" ما تترك أكثر الأشياء تفاهة إنطباعات كبيرة في الناس، اثر مما تفعله الأشياء البالغة الخطورة.

قال راديلوف – أجل، لقد خبرت ذلك بنفسي – كنت، كما تعرف متزوجا"، ليس لفترة طويلة ... ثلاث سنوات، توفيت زوجتي بسبب الولادة. كنت أظن أنني لن أحتمل العيش بعدها، كنت متألما" ألما" مبرحا"، مفجوعا"، لكنني لم أستطع البكاء، كنت أروح وأجيء كالمخبول. ألبسوها الملابس اللازمة ووضعوها على المنضدة، هنا في هذه الغرفة. جاء القس وأتى القندلفتيه وشرعوا يرتلون الأغاني ويصلون ويحرقون البخور، انحنيت انحناءات أرضية، لم تنساب من عيني ولو دمعة واحدة، كأن قلبي قد تحجر وكذلك رأسي. سرى الثقل في كل أوصالي. هكذا مرَّ اليوم الأول. أتصدقني، وصل بي الأمر، أنني استسلمت للنوم في الليل. دخلت في الصباح التالي على زوجي، حدث ذلك في الصيف، كانت الشمس قد أنارتها من أخمص قدميها حتى قمة رأسها إنارة بالغة السطوع. رأيت على حين غرة .. (هنالك إرتعش راديلوف دون إرادته). ماذا تظن؟ لم تكن إحدى عينيها مغلقة تماما"، ومرت ذبابة على تلك العين ... فتهاويتُ كالحزمة، وعندما

ثبت إلى رشدي، طفقت أبكي، بكيت و لم أستطع كبح جماح نفسي ...

لاذ راديلوف بالصمت، رنوت إليه، ثم إلى أولغا ... لن أنسى أبدا" تعبير وجهها. وضعت العجوز الجورب على ركبتيها، وأخرجت من المثبنة منديلا" ومسحت دمعة خفية. نهض فيودور ميخيتيش فجأة، وأمسك الكمان وغنى أغنية بصوت أجش موحش. كان يرغب، على الأرجح، أن يبعث الحبور فينا، لكننا إنتفضنا من أول صوت أطلقه، وطلب راديلوف منه إلتزام الهدوء ...

إسترسل يقول، على أية حال، ما كان كان، والماضي لا يعود، وأخيرا" ... أضاف قائلا" بعجالة، كل شيء يسير نحو الأحسن في العالم الراهن، حسبما قال فولتير على ما أظن.

قلت، أجل، دون ريب. زد° على ذلك من الممكن تحمل أية تعاسة مهما كانت، وليس هناك وضع مهما يبلغ من السوء، لا يمكن تجاوزه.

علّق راديلوف قائلا": أو تظن ذلك؟ حسنا"، قد تكون محقا". أتذكر أني رقدت في مستشفى عسكري في تركيا، كنت شبه ميت، أصابتني حمى مقيته. لا يمكن إطراء المبنى، لأن الوضع وضع حربي طبعا"، ومع ذلك فالحمد لله ! جلبوا فجأة مرضى آخرين، فأين يمكن وضعهم؟ ذهب الطبيب هنا وهناك، لا مكان. إقترب مني وسأل مساعد الطبيب: «أما زال على قيد الحياة؟» أجابه «كان حيا" في الصباح» انحنى الطبيب وأرهف السمع: ما زلتُ أتنفس، لم يطق صاحبي صبرا"، فقال «يا له من خلق أحمق، ها هو ذا شخص يعاني من سكرات الموت، وسيموت حتما"، ومع ذلك يظهر الجلد ويطيل، ويشغل مكانا" فحسب، ويعيق الآخرين ». فكرت في دخيلتي:

«أجل، حالك سيء يا ميخائيل ميخايليتش ...» وها أنني شفيت وما زلت حيا" أرزق حتى اليوم كما ترى. فلعلك على حق.

أجبته – مهما يكن الحال، فأنا على حق، وحتى لو قضيت نحبك، فإنك مع ذلك ستتخلص من وضعك السيء.

أضاف قائلا" وضرب يده على الطاولة بقوة ... بالتأكيد، بالتأكيد، حسبك أن تقرر .... فما الفائدة المرتجاة من وضع سيء؟ ..... وعلام التواني والتماهل، ...

نهضت أولغا بسرعة وخرجت إلى البستان.

هتف راديلوف – حسنا" يا فيديا، أرقص !

وثب فيديا ومشى في الغرفة تلك المشية المتأنقة الخاصة التي تمشيها «العنزة» المشهورة حول الدب الأليف، وغنى «كيف عند بوابتنا ....»

دوى عند المدخل طرق عربة خفيفة سريعة، وما هي إلا لحظات، حتى دخل الغرفة عجوز طويل القامة، عريض المنكبين، مكتنز، إنه المالك المعتوق أوفسيانيكوف ... ولكن أوفسيانيكوف، امرىء رائع وفريد من نوعه لدرجة نود التحدث عنه – ونستميح الإذن من القارئ – في حكاية أخرى ! وأضيف الآن من عندي فحسب، ذهبنا أنا ويرمولاي، في اليوم التالي مع انبلاج الضوء إلى الصيد، ومن الصيد إلى البيت، بعد أسبوع عرجت على راديلوف مرة أخرى، بيد أني لم أجده، لا هو ولا أولغا في البيت، إنقضى أسبوعان وعلمت أنه توارى فجأة، ترك أمه وسافر إلى مكان ما بصحبة أخت زوجته. أصاب القلق

المحافظة برمتها وتحدثت عنهذه الحادثة، حينئذ فقط فهمت فهما" كاملا" تعبير وجه أولغا في أثناء حكاية راديلوف. لم تكن لتشف عن المعاناة وحدها آنئذ، وإنما تلظت غيرة.

زرت قبيل رحيلي من القرية العجوز راديلوفا. وجدتها في صالة الضيوف، كانت تمزح مع فيودور ميخيتيش.

سألتها أخيرا" – هل لديك أنباء عن ابنك؟

بكت العجوز. و لم أسأل بعدئذ، عن راديلوف.

المالك المعتوق

أوفسيانيكوف

تخيلوا، أيها القراء الأعزاء، امرءاًمكتنزا" طويلا"، عمره يناهز السبعين، ذا وجه يذكرنا بعض الشيء بوجه كريلوف، ونظرة صافية ذكية تلوح من تحت حاجبين بارزين، وطلعة وقورة وحديث متزن، ومشية بطيئة: هذا هو أوفسيانيكوف. كان مرتديا" سترة فضفاضة داكنة الزرقة ذات كمين طويلين مزررة إلى الأعلى، وشالا" من الحرير الليلكي على عنقه وجزمة متألقة النظافة ذات شراريب، هيئته عموما" تشبه هيئة تاجر ميسور. كانت يداه جميلتين ناعمتين بيضاوين، وغالبا" ما يمسك في أثناء الحديث بأزرار سترته. يذكرني أوفسيانيكوف، بوقاره ورصانته وذكائه وخموله وصراحته وعناده بالبويار الروس قبيل عهد بطرس ... إن ارتداء الفيدياز كان يمكن أن يلائمه. فهو أحد البقايا الأخيرة من ابناء العصر القديم. كان جيرانه يحترمونه احتراما" بالغا" ويعتبرون التعرّف به شرفا" لهم. أما نظراؤه، المالكون الأحرار، فلا يعوزهم إلا أن يصلوا أمامه فحسب، فهم يرفعون قبعاتهم له من بعيد ويفتخرون به. وإذا تكلمنا بشكل عام، فإنه ليصعب حتى الآن تمييز المالك الحر عن الفلاح: ممتلكاته تكاد تكون أسوأ من ممتلكات الفلاح. فعجوله لا تأكل سوى الحنطة السوداء، وخيوله بها رمق من الحياة وسروجها من الحبال.

كان أوفسيانيكوف استثناءً من القاعدة العامة، رغم أنه غير ذائع الصيت بصفته ثريا". عاش مع زوجته في بيت صغير مريح أنيق، عنده نفر قليل من الخدم، يلبس المشتغلون عنده على النمط الروسي يسميهم عمالا". كانوا يحرثون أرضه. لم يعتبر نفسه من النبلاء و لم يدع بأنه ملّاك «و لم يتناس وضعه» قط كما يقولون، لم يكن ليجلس فورا" ومن المرة الأولى، وينهض من مكانه حتما" عند دخول ضيف جديد، لكن بوقار وحفاوة جليلة بحيث أن الضيف ينحني أمامه لا إراديا". يتمسك أوفسيانيكوف بتقاليد قديمة، لا من جراء إعتقاده بالخرافات، وإنما بحكم العادة (فقد كان حر الإتجاه). فهو مثلا" لا يحب العربة ذات الزنبركات، ولما كان لا يجد الراحة فيها، فهو يسافر إما في عربات خفيفة سريعة، وإما في عربة صغيرة جميلة ذات وسادة جلدية، ويقود هو نفسه جواده الكُميت الحسناً (كان يحتفظ بخيول الكميت وحدها).

أما الحوذي، شعره حليق على شكل إسطواني، يرتدي سترة سميكة وقبعة واطئة مصنوعة من صوف الغنم، ويتمنطق الحزام، ويجلس باحترام إلى جانبه. كان أوفسيانيكوف ينام دائما" بعد الغداء، يذهب إلى الحمام في أيام السبت، يقرأ الكتب الدينية فقط (كان يضع نظارته الفضية المستديرة برصانة على أنفه) ينام وينهض مبكرا". بيد أنه كان يحلق لحيته ويرتب شعره على الطريقة الألمانية. وهو يستقبل الضيوف بلطف وترحاب بالغين، لكنه لا ينحني لهم حتى الخصر، لا ينهمك ولا يقدم لهم أنواع المأكولات الشهية من جافة ومالحة. (إعتاد أن يقول ببطء، دون أن ينهض من مكانه – أيتها الزوجة، ويدير رأسه قليلا" نحوها، إحضري للسادة شيئا" من الطعام يتلذذون به). يعتبر من الخطيئة بيع الخبز، لأنه هبة الله، وفي سنة الأربعين،

في فترة المجاعة العامة والغلاء الفاحش وزع على الملّاكين والفلاحين المجاورين كل ما عنده من احتياطي القمح، وفي السنة التالية أعادوا إليه شاكرين دينه من النوع نفسه الذي أخذوه. غالبا" ما يهرع الجيران إلى أوفسيانيكوف طلبا" للفتوى وإحلال الصلح بينهم، كانوا دائما" يذعنون لحكمه تقريبا" ويصغون لنصيحته.

كثيرون هم الذين خططوا حدود قطعهم نهائيا" بفضل مروءته ... لكنه بعد مشادتين أو ثلاث بين الملّاكات أعلن عن رفضه القيام بأية وساطة بين أفراد الجنس النسائي. لم يكن ليطيق العجالة، التسرع المثير، ثرثرة النساء و«الصخب». صودف ذات مرة أن أحترق داره. هرع العامل راكضا" إليه وهو يصرخ: «حريق ! حريق !» «فقال له أوفسيانيكوف بهدوء – حسنا" ما بالك تصرخ؟! أعطني قبعة وعُكازا" ....». كان يهوى ترويض الخيول بنفسه. انطلق به ذات مرة بيتوك [٥] مندفعا" تحت الجبل نحو وادٍ ضيق، فقال له أوفسيانيكوف بحسناة «حسنا"، حسبك، أيها المهر الصغير العمر، ستقتل نفسك» وما هي إلا لحظة حتى طار إلى الوادي مع العربة الخفيفة السريعة والفتى الجالس في الخلف والجواد. من حسن الحظ أن في قاع الوادي أكوام من الرمل. فلم يصب أحد بأذى ما خلا بيتوك الذي إنخلعت قدمه. «استطرد أوفسيانيكوف في كلامه بصوت هادئ وهو ينهض من الأرض – حسنا"، أرأيت، أو لم أقل لك». وجد أيضا" زوجة على نسقه. تاتيانا إلينيتشنا أوفسيانيكوفا، إمرأة طويلة القامة، رصينة، صمُوتة، تتشح دائما" بشال بني حريري، يلوح عليها الفتور، علما" بأن أحدا" لم يشتك. من شدّتها قط، وإنما على العكس، كان يدعوها

٥– بيتوك تسمية لفصيلة خصوصية من الخيول تتكاثر في محافظة فورونيج حول «خرينوف» المشهور (حقل الخيول السابق للكونت أورلوف). ملاحظة الكتاب.

كثير من الفقراء بالأم والمحسنة. ما فتئت قسمات وجهها المتناسقة وعيناها الغامقتان الكبيرتان وشفتاها الدقيقتان تدل حاليا" على وجود أمارات جمال رائع في وقت من الأوقات. و لم يكن لدى عائلة أوفسيانيكوف أطفال.

تعرفت عليه كما بات معروفا" لدى القارئ – عند راديلوف وبعد يومين تقريبا" ذهبت إليه. كان موجودا" في البيت. جلس على كرسي جلد كبيرة وهو يقرأ كتيبا" دينيا"، وعلى كتفه تقبعُ قطة رمادية. استقبلني على طريقته المألوفة، بلطف ووقار. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث. سألته في تلك الأثناء – قل لي، لوكابيتروفيتش الحقيقة، أو كانت الأمور أفضل في الماضي، في زمانكم؟

أجاب أوفسيانيكوف – أقول لك أن بعض الأشياء كانت أفضل، حقا"، كان العيش أهدأ، والقناعة أكثر، بالضبط ... ومع ذلك، فالآن أفضل، وأطفالكم سيكونون بوضع أفضل، بعون الله.

هكذا توقعت، لوكابيتروفيتش، ستطري على الزمان القديم.

كلا، لا شيء يحملني على الإطراء، ولا سيما على الزمان القديم. ها أنت ذا، أقول على سبيل المثال، ملّاك الآن، ملّاك شأنك شأن جدك المرحوم، بيد أنه لن تكون لك مثل سلطته ! وأنت نفسك شخص تختلف عنه. الآن يضيق علينا أسياد آخرون، ولكن يبدو لا يمكن تفادي ذلك. سيكون كل شيء على ما يرام في نهاية المطاف. كلا، لا أرى الآن، ما رأيته في شبابي.

واي شيء مثلا"؟

لنأخذ الحديث عن جدك، كمثال مرة أخرى. كان صاحب سطوة ! سام «أصحابنا» الضيم، لعلك تعرف، وكيف يمكن لك ألا تعرف أرضك، قطعة الأرض تلك الممتدة من تشيبليغين إلى مالينين؟ ... إنها الآن مزروعة عندكم شوفان .... لكنها، كانت لنا، كانت كلها لنا. لقد إنتزعها جدك منا، إمتطى صهوة جواده، لوّح بقبضته وقال: «إنها ملك لي». كان والدي المرحوم (أدخله الله فسيح جنانه) امرءاًعادلا" وشخصا" متوقد الطبع أيضا". لم يطق صبرا"، ومن يرغب في فقدان أملاكه؟ قدّم شكوى للمحكمة، قدّم وحده، أما الآخرون فلم يذهبوا، استبدّ بهم الخوف. نقلوا الخبر إلى جدك، يعني أن بيوتر أوفسيانيكوف يشتكي عليك ! لقد قمت بانتزاع الأرض ... أرسل جدّك حالا" صياده باوش مصدرا" إليه أمرا" ... أخذوا والدي واقتادوه إلى ضيعتكم. كنت حينئذ صبيا" صغيرا"، ركضت وراءه حافيا". وماذا حدث ... أحضروه إلى بيتكم وجلدوه تحت النافذة. وقف جدّك ذاك في الشرفة، أخذ ينظر، جلست جدّتك خلف النافذة وتطلعت إليه. كان والدي يصرخ «يا أمنا، ماري فاسيليفنا، إشفعي لي، إرحميني ولو انت !» كانت فقط تنهض وتتطلع. ثم أخذوا من والدي عهدا" أن يتنازل عن الأرض وطلبوا أن يزجي لهم الشكر لتركهم إياه حيا". وهكذا أصبحت الأرض لكم. إذهب واسأل الفلاحين: ماذا تُسمى هذه الأرض؟ تُسمى أرض الهراوات. لأنها انتزعت بالهراوة. ومن جرّاء ذلك لا يجوز لنا، نحن الناس الصغار، أن نأسف كثيرا" على الأنظمة القديمة.

لم أعرف كيف أجيب أوفسيانيكوف، بل لم أجرؤ على النظر في وجهه.

إستقر عندنا جار آخر في تلك الحقب، وهو كوموف، ستيبان

نيكتو بولينونيتش، كان يعذّب والدي بشتى السبل. كان شخصاً سكّيراً يحب الولائم، وما إن يترنح ثملاً حتى يقول بالفرنسية سية بون «هذا جيد» ويلعق شفتيه متلذذاً، حينئذ يجدر بالمرء حمل صور القديسين إلى خارج الغرفة ! كان يبعث الدعوات لجميع الجيران للتفضل عنده، وعربات الترويكا واقفة وهي على أهبة الإستعداد، فإذا لم تذهب إليه، باغتك فوراً بالمجيء ... كان رجلاً غريب الأطوار ! لا يكذب عندما يكون في حالة «صحو»، وما أن يتعاطى الخمر حتى يشرع في الحديث قائلاً، إن لديه ثلاث بيوت في بطرسبورغ في منطقة فونتانكا: أحدهما أحمر وبه مدخنة واحدة، والثاني أصفر وله مدخنتان والثالث أزرق غامق بدون مدخنة، وعنده ثلاثة أولاد (علماً بأنه لم يكن متزوجاً قط).

أحدهما في فرقة المشاة والآخر في الفرسان والثالث بمفرده ... ويقول إن في كل بيت من بيوته يعيش واحد من أبنائه، الابن الأكبر يزوره الأميرالات، والثاني يزور الجنرالات بينما يزور الإنكليز ثالثهم ! كان يقف ويقول: «لنشرب من أجل صحة ابني الأكبر، إنه أكثرهم إجلالاً لدي» ثم يبكي. والويل لمن يرفض الوقوف إذ يقول «سأطلق الرصاص عليه ! ولا اسمح بدفنه ! ...» أو يثب أحياناً ويصيح: «أرقص يا جمهور الله من أجل مسراتك وفي سبيل مؤاساتي !» حسناً يجب أن ترقص ولو كنت تقضي نحبك، أرقص. أما فتياته الفلاحات فقد سامهن مر العذاب. كن أحياناً يغنين طوال الليل وحتى الصباح في جوقة واحدة، والفتاة التي صوتها أعلى من الأخريات يخرجها ويمنحها مكافأة. يضع يديه على رأسه عندما يغشاهن التعب ويأخذ بالتفجع: «أواه، أنا اليتيم الوُحداني، يتركنني، يا عزيزتي !» حينئذ يحضر ساسة الخيل حالاً ويوقظوا الفتيات فوراً. أما والدي فقد

راق له، وماذا يفعل لسوء طالعه؟ كاد أن يودي به إلى القبر، وكان قد أودى به فعلاً"، بيد أنه توفي والحمد لله: سقط من برج الحمام وهو في حالة سكر ... أولئك هم نماذج الجيران الذين عندنا !

علقت قائلاً"، – كم تبدلت تلك الأزمان !

قال أوفسيانيكوف مؤكداً" – أجل، ومع ذلك لا بد من القول أن النبلاء عاشوا في الأعوام الخالية بأبهة أكبر، ناهيك عن الفيلموجا (٧) الذين لا داعي للتحدث عن بذخهم: لقد شاهدتهم في موسكو. يقولون إنه لم يعد لهم وجود هناك الآن.

هل كنت في موسكو؟

كنت، منذ أمد بعيد للغاية، ها أنا ذا الآن في الثالثة والسبعين من عمري، ذهبت إلى موسكو عندما كان لي ستة عشر عاماً".

تنهد أوفسيانيكوف.

من رأيت هناك؟

رأيت جمعاً" غفيراً" من الفيلموجا، وأنماطاً" متباينة، عاشوا طليقين مجيدين رائعين. ومع ذلك لم يضاه. أحد الكونت المرحوم الكسي غريغور يفيتش أورلوف تشمينسكي (٨). رأيت الكسي غريغويفيتش في كثير من الأحايين. عمل جدي عنده كمسؤول عن شؤون المنزل. كان الكونت يعيش قرب بوابة كالوج في شارع شابولوفكا. كان فيلموجا بحق وحقيقة، يا لها من قامة وقوة ونظرة ! إذا لم تكن تعرفه، و لم تدخل إليه تخشاه حتماً"، ويتملكك الإرتباك، وإذا دخلت عليه، فكأن دفء الشمس يحتويك ويغمر الحبور كل

أوصالك. كان يأذن للجميع بالدخول عليه، وكان شغوفا" بكل شيء. كان يسوق هو نفسه الجواد في أثناء الركض ويتسابق مع أي كان، ولا يسبق أحدا" فورا"، ولا يسيء إليه ولا يوقفه مقاطعا"، لكن يتخطّاه عندما تصبح نهاية الشوط وشيكة، وكم كان لطيفا"، يعزي منافسه ويمتدح جواده. كان يحتفظ بالحمام البهلواني من أحسن الأصناف. يخرج أحيانا" إلى الفناء ويجلس على الكرسي ويأمر الحمام بالصعود، بينما يقف الناس على السطوح المحيطة به مسددين البنادق نحو البواشق لإبعادها. ويضعون عند قدمي الكونت طستا" فضيا" كبيرا" به ماء، كان يرى الحمام فيه وقد إنعكس بالماء. عاش مئات الفقراء والمعوزين على خبزه .... كم وزع من النقود ! لكنه إذا غضب فكأنه زمازم الرعد. يثير كثيرا" من الرعب، ومع ذلك لا شيء يبعث على الشكوى: تتطلع إليه، فإذا به يبتسم. وإذا أو لم وليمة، فإن موسكو كلها تغني ! .... كم كان ذكيا" لو تدري ! لقد هزم الأتراك. كان يحب المصارعة أيضا"، جلبوا له ماردين من تولا وخاركوف وتومبوف ومن كل مكان. كان يكافئ الغالب، وإذا صرعه أحد فإنه يغدق عليه الهدايا ويقبله من شفتيه .... تولّيت العناية بحديقة لا نظير لها في روسيا في غضون مكوثي في موسكو: كان يدعو الصيادين كافة، من كل أرجاء المملكة، يحلون ضيوفا" عليه، يحدد لهم يوما" معينا"، ويمنحهم مدة ثلاثة أشهر. ها هم قد تجمعوا، جلبوا الكلاب والصيادين المحترفين، حسنا"، وصل الجيش، إنه كالجيش حقا"، يتناولون طعام الوليمة كما ينبغي، ثم يتجهون قاصدين البوابة.

هرع الجمهور بالآلاف ! ... وماذا تظن؟ ... سبقت كلبة جدك جميع الكلاب.

سألته، أوليست الكلبة ميلوفيدكا؟

ميلوفيدكا، ميلوفيدكا .. ها هو ذا الكونت بدأ يستميله: « بع لي كلبتك: وخذ ما تشاء»

– «فيجيبه، كلا، أيها الكونت، ما أنا بتاجر: حتى الخرق الزائدة عن الحاجة لا أبيعها، إنني مستعد أن أتنازل عن زوجتي احتراما" لك، لكنني لن أعطي ميلوفيدكا مطلقا" ... بالأحرى لا مانع عندي حتى من دخول السجن ». امتدحه الكسي غريغويفتش وكان يقول «أحب ذلك». حملها جدك في العربة لدى عودته، وعندما ماتت ميلوفيدكا، دفنها، بمصاحبة الموسيقى، في الحديقة، دفن الكلبة ووضع على قبرها حجرا" يحمل نقشا".

علقت قائلا": هكذا إذن أن الكسي غريغوريفيتش لم يؤذ حدا".

تلك شيمته دائما": من يبحر في ماء ضحل، يعرض نفسه للأذى –

سألته بعد برهة صمت وجيزة، أي نوع من الناس باوش هذا؟

كيف يمكن أن تسمع بميلوفيدكا ولا تسمع بباوش؟ ... كان هذا الصياد والسواط الرئيس لدى جدك. لم يكن حب جدك له بأقل من حبه لميلوفيدكا. كان إنسانا" قانطا"، ما إن يأمره جدك بشيء، حتى ينفذه بلمح البصر، ولو رُشق بسكين ... ما أن يصيح، حتى تدوي صيحته في أرجاء الغابة، كان أحيانا" يتوقف ويحرن فجأة ثم يترجل عن جواده ويضطجع ... وعندما لا تسمع الكلاب صوته تتوقف حالا" ! تتخلى عن حماستها، ولن تستطيع سوقها مهما بذلت من جهد. كان جدك يغضب «لا أريد البقاء حيا"، إذا لم أشنق هذا الخامل ! سأقلب أحشاء هذا المعادي للمسيح. واسحب كعب هذا القاتل إلى رقبته !» وتحسم القضية، بأن يبعث أحدا" ليستفسر ما الذي يريد،

ولماذا توقف عن الصياح؟ يطلب باوش عادة في مثل تلك الحالات نبيذاً"، فيحتسيه وينهض ثم يهدر مرة أخرى هديراً" رائعاً".

يبدو – أنك أنت ايضاً" تهوى الصيد ! لوكا بيتروفيتش؟

كان يمكن أن أهواه ... تماماً"، ليس حالياً": الآن أدبر زماني، وإنما في أعوام الشباب ... لكن كما تعلم، ثمة حرج، بسبب الرتبة. فلا يتأتّى على أمثالنا أن يضعوا أنفسهم في مصاف النبلاء. بالضبط: ينضم أحياناً" امرؤ سكير عديم الكفاءة من طبقتنا إلى الأسياد ... وأية بهجة في ذلك ! .... إنك تلحق العار بنفسك فحسب. يعطونه حصاناً" رديئاً" متعثراً" في سيره، يرمون قبعته بين فينة وأخرى على الأرض، كما لو كانوا يضربون الجواد بالسوط، لكنهم يضربونه هو، ومع هذا كله يضحك ويُضحك الآخرين. كلا، أقول لك، كلما كانت رتبتك أوطأ، ترتب عليك أن تكون أكثر حذراً"، وإلا لطّخت نفسك بالعار.

واصل أوفسيانيكوف كلامه متنهداً" – أجل لقد مضى زمن طويل منذ ذلك الحين، وأنا أعيش في هذا العالم: وحلّت أزمنة أخرى. إن ابناء الفئات الدنيا، فريقان: فريق إنخرط في الوظيفة، وفريق بارح مكانه، ومن هم أحسن حالاً"، فأولئك لن تعرفهم أصلاً". نظرت ملياً" إلى أولئك الميسورين، بمناسبة تخطيط حدود الأرض، ولا بد أن أقول لك، لقد غشي السرور قلبي وأنا أتطلع إليهم: إنهم رقيقو الحاشية ومجاملون، بيد أن شيئاً" واحداً" أدهشني: لقد حفظوا جميع العلوم، ويتكلمون بطلاقة تذوب لها الروح، لكنهم لا يفهمون القضايا العملية ولا يتحسسون حتى منفعتهم الذاتية: إنهم معنيون بالفرد القن والوكيل، والاضطهاد، وما تشاء، كأنهم رماة سهام. لعلك تعرف أنت نفسك كورولیف، ألكسندر فلاديميروفيتش – بماذا يختلف عن

النبيل؟ إنه وسيم، ثري تعلم في «الجمعات (٩)» وسافر إلى الخارج، يتحدث بطلاقة وتواضع، يصافح أيدي الجميع. أتعرفه؟ ... إذن أصغ.إلي، ذهبنا في الأسبوع المنصرم إلى بيريزوفا بدعوة من الحكم نيكيفور اليتش. قال الحكم نيكيفور اليتش «يجب، أيها السادة، تخطيط الحدود، هذا مخز، لقد تخلفت قطعتنا عن قطع الأرض الباقية، بادروا إلى العمل». وها نحن أولاء بادرنا. جرت محادثات، مناقشات كما يحدث عادة، شرع وكيلنا يتخذ وضعا" مصطنعا" .. لكن أول من طفق يثير الضجيج أوفتشينيكوف بورفيري ... ولماذا يثير المرء الضجيج؟ ... ما دام لا يملك فيرشوكا (١٠) من الأرض: إنني أتصرف حسب وكالة أصحابنا. وها هو ذا يجأر: «كلا، ليس بوسعكم مخادعتي، كلا، لست من تصطدمون به ! هاتوا مخططكم هنا ! ليأت. ماسح الأرض، يا خائني المسيح، هاتوا هنا !».

«حسنا"، ما هو أخيرا" مطلبك» – «ها أنتم أولاء وجدتم أحمق ! هيه ! أتظنون هكذا، سأعلن لكم مطلبي على التو؟ ... كلا، هاتوا المخطط هنا، هذا ما أبتغيه !» بينما كان يضرب هو نفسه بقبضته على المخطط. أهان مارفا دميتريفنا إهانة قوية. لقد صرخت: «كيف تجرؤ على تلطيخ سمعتي؟» – وأجابها «إني لا أثمنى مثل سمعتك حتى لفرسي البني». سقوه نبيذ المادير ا بجهد جهيد، وهدأوا ثورته، بينما اهتاج الآخرون. أما عزيزي، كورولیف، ألكسندر فلاديميرويتش، فقد جلس في الركن وأخذ يعض مقبض العصا، ويهز رأسه فقط.

شعرت بالخجل، نقدت قواي، وكان بودّي الهروب إلى الخارج. لكن ماذا سيظن بنا المرء؟ تطلعت، نهض ألكسندر فلاديميرويتش وشفّت طلعته عن رغبة في الكلام. كان الحكم دائم الحركة، قال: «أيها السادة، أيها السادة، يرغب ألكسندر فلاديميرويتش ، يرغب

في الكلام». ولا يمكننا إلا أن نطري النبلاء: لقد أخلدوا إلى الصمت توا".

وها هو ذا ألكسندر فلاديميرويتش شرع يقول: ما بالنا، يبدو أننا نسينا الغاية التي اجتمعنا من أجلها، مما لا ريب فيه أن تخطيط الحدود، نافع للمالكين أيضا"، لكن لماذا نعمل بمقتضاه في الجوهر؟ في سبيل تسهيل أمور الفلاح، كي يشتغل بيسر. ويحسن أداء واجبه، بينما الذي حصل الآن أنه لا يعرف هو نفسه أرضه وأحيانا" يقطع خمسة فيرستات لغرض الحراثة، ولا يجوز مؤاخذته على ذلك.

استطرد ألكسندر فلاديميرويتش يقول، من الإثم ألا يُعنى الملّاك برفاهية الفلاح، وإذا فكرنا، أخيرا"، تفكيرا" سديدا"، فإن منفعتهم ومنفعتنا واحدة: إن كانوا بخير، فنحن بخير، وإن نالهم سوء نالنا سوء أيضا" .. وبناء على ذلك، فإنه لإثم وشيء غير معقول ألا نتفق من جرّاء أمور تافهة ... ومضى ... ومضى ... ويا له من كلام ! إنه ليفتن الروح ... شعر النبلاء كلهم بالخجل، أما أنا فكادت تخنقني العبرات.

أقولها كلمة حق، إنه لا يوجد حتى في الكتب القديمة مثل ذلك الكلام .. وكيف انتهت القضية؟ لم يتنازل هو نفسه عن أربع ديساتين من المستنقعات الطحلبية و لم يقبل ببيعها أيضا". قال:

«سيجفف فلاحيي المستنقع وأشيد عليه معملا" لأقمشة الجوخ مع إدخال التحسينات عليه ثم قال: إنني إخترت هذا المكان، ولدي اعتبارات خاصة بهذا الشأن ....» ومع أن هذا حق، لكن المسألة ببساطة هو أن كاراسيكوف أنطون جار ألكسندر فلاديمير قد عزّ عليه أن يدفع لوكيل كورولیف مئة روبل من الأوراق النقدية. وهكذا عدنا أدراجنا دون إنجاز القضية. وما برح ألكسندر فلاديميرويتش يعتبر

نفسه محقاً" حتى الآن ويتحدث عن معمل الجوخ، لكنه لم يشرع بتجفيف المستنقع.

وكيف يتصرف في عزبته؟

يعمل على إدخال أنظمة جديدة دائما". الفلاحون لا يمتدحونه – ولا ضرورة للإصغاء إليهم. إنَّ ألكسندر فلاديميرويتش يسلك سلوكاً" صالحا".

كيف يمكن ذلك، لوكا بيتروفيتش؟ كنت أظنك تتمسك بالقديم؟

أنا، لي بشأن آخر. إنني لست نبيلاً" ولا ملّاكا". وهل أن ما بحوزتي يمكن تسميته مزرعة؟ .... ورغم أنني لا أملك غيرها، أحاول أن أتصرف بعدالة وبموجب القانون – ومع ذلك فالحمد لله ! الأسياد الجدد لا يحبون الأنظمة السابقة: وأنا امتدحها ... لقد آن الأوان للعودة إلى جادة الصواب ... لكن المصيبة تكمن هنا: الأسياد الشباب يتفلسفون للغاية. يتصرفون مع الفلاح كالدمية. يدورون، يدورون، يتعبون ويتركون الأمور على عواهنها. الوكيل إما قن وإما مدير من الألمان، ويمسي الفلاح مرة أخرى بين براثنه. وليت امرءاً ولو واحداً" من الأسياد الشباب أضحى نموذجا" يحتذى به وبيّن على هذه الشاكلة، يعني، كيف يجب تصريف الأمور ! ... وما نهاية كل هذا؟ أو من المعقول أن أموت ولا أرى الأنظمة الجديدة؟ .... ما مغزى هذه الحكاية؟ لقد مات القديم، و لم يلد ما هو فتي بعد !

لم أدرِ كيف أجيب أوفسيانيكوف: التفت إليَّ وتحرَّك مقتربا" مني وواصل كلامه بصوت خافت:

وهل سمعت بفاسيلي نيكولايتش لوبوزفونوف؟

كلا، لم اسمع به.

وضحّ لي رجاء، ما هذه الأعاجيب؟ إنني في متاهة. لقد تحدّث فلاحوه عنه، ولم أفقه من كلامهم أي معنى. إنه امرؤ شاب، كما تعرف، تسلم منذ أمد قصير بعد وفاة والدته إرثاً" ... وها هو ذا يأتي إلى ضياعه. احتشد الفلاحون ليلقوا نظرة على سيدهم. خرج إليهم فاسيلي نيكولايتش. تطلع الفلاحون – يا للأعجوبة؟ – جاء السيد مرتديا" بنطلونا" من قماش البليسه، كالحوذي، بينما احتذى جزمة ذات حاشية، وقميصا" أحمر وقفطانا" كقفطان السائق، أرسل لحيته، على رأسه قبعة غريبة الشكل أيضا"، تلوح على وجهه كذلك أمارات الغرابة – أتَمِل؟ ما هو بالثمل، لكنه فاقد رشده. «قال، مرحبا" يا شباب ! كان الله في عونكم» تجمع الفلاحون كالنطاق حوله، بيد أنهم صامتون: كانوا متهيبين أتدري؟ ويبدو أنه هو نفسه كان كالمتهيب أيضا". بدأ يلقي خطابا": «قال، أنا روسي، وأنتم روس أيضا"، إنني أحب كل ما هو روسي .... فإن روحي روسية وكذلك دمي روسي .....» وفجأة هتف قائلا": «حسنا"، أيها الأولاد، غنوا أغنية شعبية روسية» إصطكت رُكب الفلاحين، وأصابهم خدر بليد. شرع أحد الشجعان بالغناء، لكنه قبع على الأرض حالا"، واختبأ خلف الآخرين .... وهذا ما ينبغي أن يثير الإستغراب: كان عندنا ملّاكون، ملّاكون قانطون، عاطلون دائما" على وجه التحديد، يرتدون ملابس كالحوذية، ويرقصون ويعزفون على القيثارة، يغنون ويشربون مع الخدم، يولمون الولائم مع الفلاحين، لكن فاسيلي نيكولايتش أشبه بالفتاة الحسناء: إنه يقرأ الكتب دوما" أو يكتب، أو يتلو شيئا" بصوت عال دونما سبب – وهو لا يتحدث مع أحد، منطوي على نفسه،

يواصل التنزه في الحديقة، كأنه يتضجر أو يكتئب. ارتعب الوكيل السابق منه تماماً في بادئ الأمر: طاف قبيل مجيء فاسيلي نيكولايتش، بالخدم من الفلاحين، انحنى لهم، يبدو أن القطة تعرف لحم من أكلت ! غمر الأمل الفلاحين وفكروا: «هراء، أيها الأخ ! سيجرون معك الحساب يا عزيزي، ويرشدونك، يا لك من جشع ! ....» ولا أدري كيف أعرض عليك أي منقلب انقلبت الأمور؟ إن الله نفسه لم يحسب حساباً لمثل هذا التحول ! دعا فاسيلي نيكولايتش الوكيل إليه وقال له، وقد تخضب بالحمرة، وكذلك أتدري؟ تسارعت أنفاسه: «كن عادلاً ولا تضيِّق على أحد، أتسمع؟» لم يطلب منه المثول أمامه منذ ذلك الحين ! فهو يحيا في ضيعته كالغريب ... ارتاح الوكيل على أية حال، أما الفلاحون فلا يتجرأون على الدنو من فاسيلي نيكولايتش: إنهم يخافونه، وهذا شيء آخر يثير الدهشة حقاً: إن السيد ينحني لهم وينظر إليهم ببشاشة، لكن معدتهم تغور في داخلهم من الفزع. ما هذه العجائب أيها السيد، خبرني؟ ... أو لعلني أمسيت غبياً، أو بلغت من العمر عتيّاً، لست أدري.

أجبت أوفسيانيكوف قائلاً: لعل لوبوزفونوف مريض.

كيف يمكن أن يكون مريضاً ! إن عرضه مساوٍ لطوله، ويا له من وجه لديه. ما لنا وله، ما أبدنه، رغم أنه ما زال شاباً ... ومع ذلك، فالله أعلم ! (ندت عن أوفسيانيكوف تنهيدة عميقة).

بدأتُ قائلاً – حسناً، دع النبلاء جانباً، ماذا تستطيع أن تحدثني، لوكا بيتروفيتش، عن المالكين المعتوقين؟

قال بسرعة – كلا، وفّر عليَّ هذا الأمر، حقاً ... كان يمكن أن أقول لك ... فما يضير ! (لوّح أوفسيانيكوف بيده تلويحة يأس)

الأفضل أن نتناول الشاي، الفلاحون يظلون فلاحين، ومع ذلك، إذا قلنا الحق، كيف سيضحي حالنا؟

أخلد إلى الصمت. قدموا الشاي. نهضت تاتيانا من مكانها وجلست على مقربة منا. كانت قد خرجت إبان الصباح بضع مرات وعادت أدراجها بلا ضجة. خيَّم السكون على الغرفة. احتسى أوفسيانيكوف، برصانة وبطء، قدح شاي تلو الآخر.

علقت تاتيانا ألينيتشنا – جاءنا اليوم ميتيا.

تجهَّم أوفسيانيكوف.

وماذا يريد؟

جاء يطلب الصفح.

هزَّ أوفسيانيكوف رأسه.

استطرد في كلامه ووجهه إليَّ قائلا": الآن، تطلع فحسب، ماذا تأمرني أن أصنع مع الأقرباء؟ إنَّ التخلي عنهم غير ممكن ... ها قد أنعم الله عليَّ بابن أخ. ومما لا مرية فيه أنه غلام راجح العقل وفتى نشيط، درس بصورة جيدة، ومع ذلك لا نفع يُرتجى منه.

اشتغل بوظيفة حكومية ثم ترك العمل، أترى أنه لا أمل يرجى من مستقبله ... وماذا، فهل هو نبيل؟ حتى ولو كان نبيلا" فلن يصبح في التو جنرالا". وهكذا يعيش الآن بلا عمل ... ومهما يكن فالأمر محتمل لو لم يسيء إلى الآخرين ! أخذ يكتب التماسات للفلاحين، يضع التقارير، يرشد ممثلي القرية، يفضح حقيقة مسّاحي الأرض،

يتسكع في الحانات، يختلط بالجنود وبرجوازيّ المدن وأصحاب الفنادق الصغيرة في خانات القرى. وهل تظل الرزايا بمنأى عنه في مثل هذه الحال؟ لقد هدّدته الشرطة ورؤساء الجندرمة أكثر من مرة. ونظرا" لمقدرته على المزاح، فقد كان يضحكهم، ويعود فيخلق لهم المشاكل ...

على كل حسبي كلاما"، ثم أضاف قائلا"، موجها" الحديث إلى زوجه – ألا يجلس عندك في الغرفة؟ أجل، إنني أعرفك فأنت رقيقة القلب وتشملينه برعايتك.

غضّت إلينيتشنا طرفها، ابتسمت وتخضّبت بالحمرة قليلا".

واصل أوفسيانيكوف كلامه – إنه هنا إذن .. أواه، يا لك من بلهاء ! حسنا" دعيه يأتي إلينا، افعلي هذا من أجل الضيف العزيز، ليأت. هذا الأحمق ... ها، ليأتِ، ليأتِ ...

دنت تاتيانا إلينيتشنا من الباب وصاحت: «ميتيا» !

ميتيا فتى عمره زهاء ثمانية وعشرين عاما"، طويل، ممشوق، أجعد الشعر، وما أن دخل الغرفة ورآني، حتى ظلّ واقفا" عند عتبة الباب.

كانت الملابس التي يرتديها ألمانية، لكن حجمها غير اعتيادي وسعتها عند المنكبين تدل دلالة واضحة على أن من فصّلها لم يكن خياطا" روسيا" فحسب، وإنما خياطا" شعبيا" أيضا".

قال العجوز – حسناً، اقترب، اقترب، علام تخجل؟ اشكر خالتك، وواصل كلامه مشيرا" إلى ميتيا: هذا هو أيها السيد ابن أخي أقدّمه لك، لم أستطع أن أسدّد خطاه البتة. وها قد أتت الأوقات

الأخيرة ! (وانحنينا لبعضنا بعضا"). حسناً، قل ما الخطأ الذي وقعت فيه هناك؟ ولماذا يشتكون منك، تحدَّث.

يبدو أنَّ ميتيا لم يرغب في التوضيح والتبرير أمامي.

غمغم قائلا" – فيما بعد، يا جدي.

واصل العجوز كلامه – كلا، لن يكون فيما بعد، وإنما الآن ..

أعرف. إنك تخجل في حضرة السيد الملّاك: وهذا أفضل، كي تندم.

حسنا"، حسنا" تكلم ... إننا نصغي.

بدأ ميتيا يتكلم بحيوية وهزَّ رأسه – لا شيء يدعوني للخجل، أرجو أن تتفضل يا جدي وتحكم بنفسك. أتى إليَّ مالكون معتوقون من ريشتتيلوفو: «تشفع لنا، أيها الأخ» – «ما الخبر؟» هذه هي القضية: إنَّ مخازن الحبوب عندنا في حالة حسنة، ولا يمكن أن تكون أفضل مما هي عليه، وفجأة يجيء إلينا موظف ويقول: لدي أوامر بتفقد المخازن. تفقدها وقال: «إنَّ الفوضى تعم مخازنكم، وهنالك إهمال خطير، لا مندوحة من إخبار المسؤولين بذلك». – «وما هو الإهمال؟» – يجيب «إنني أعرف ما هو» .... كنا قد اجتمعنا وقررنا: أن نقدِّم مكافأة للموظف كما يترتب علينا. لكن العجوز بروخوريتش حال دون ذلك قائلا": إنكم تفسدونهم فحسب. وماذا في الواقع أو ليس ثمة من ينصفنا؟ ... أخذنا بكلام ذلك العجوز، غضب الموظف، كتب شكوى ضدنا ورفع تقريرا". والآن سيصرّون على أن ندفع الثمن. توجّهت إليهم بالسؤال «أحقّا" إنَّ مخازنكم بحالة حسنة؟»

«الله يعلم، إنها في حالة حسنة، وفيها الكمية القانونية من الحبوب ....» – «فقلت لهم، حسناً، لا مبرِّر للخوف إذن» – وكتبت لهم ورقة .... وليس من المعروف لصالح من ستحل المسألة ....

فما هي شكواك مني بشأن هذه الحادثة، المسألة واضحة والأقربون أولى بالمعروف.

قال العجوز بصوت خافت – هذا جلي للجميع، وليس لك وحدك ... وما تلك الاضطرابات هنالك مع فلاحي شوتولوموف؟

وما أدراك بها؟

بالتأكيد، أدري.

اسمحوا لي أن أعرض المسألة مرة أخرى، فأنا على حق هنا أيضا". إنَّ بيسباندين جار لفلاحي شوتولوموف وقد حرث أربع ديساتين من الأرض. وأعلن أنها أرضي. الفلاحون يدفعون الجزية عن الأرض، وملّاكهم مسافر إلى الخارج فمن يدافع عنهم، احكموا بأنفسكم؟ لا ريب أنَّ الأرض، أرض الأقنان منذ قديم الزمان. وها هم أتوا لي وقالوا: أكتب لنا التماسا"، فكتبت لهم. علم بيسباندين بالأمر وأخذ يهدِّد: «قال، سأنتزع عظام عجز ميتكا هذا من تجويفها، وليس هذا فحسب، وإنما سأقطع رأسه إربا" إربا" من على كتفيه ....» لنر، كيف سيقطعها، فما زالت كاملة. قال العجوز – حسنا"، لا تتباه، لن يفوت رأسك العقاب، إنك امرؤ أحمق تماما" !

ما بالك يا جدي، أو لم تسمح لي أنت بالكلام ..

قاطعه أوفسيانيكوف – أعرف بالضبط ما ستقوله لي: «يجب أن

يلتزم الإنسان بالعدالة في حياته وعليه مساعدة الأقربين. وينبغي ألا تستبقي لنفسك شيئا" ... لكن أوحقا" أنك تسلك هذا السبيل؟ أو لا يأخذونك إلى الحانة، أو لا يشربونك الخمر، أو لا يتضرّعون إليك قائلين: «ديمتري ألكسيتش، سيدنا العزيز، ساعدنا، إننا سنعبر لك عن امتنانا» ويدسون خلسة روبلا" فضيا" أو ورقة مالية زرقاء (١١) في يدك؟ ها؟ ألم يحدث ذلك؟ أفصح، ألم يحدث؟

أجاب ميتيا وقد نكّس رأسه – إنني لمذنب في هذا الشأن، لكني لا آخذ من الفقراء ولا أخون ضميري.

الآن لا تأخذ، لكن سيتردّى وضعك، ولسوف تأخذ. ولا تخوّن ضميرك ... تبا" لك ! لعلك تدافع عن قديسين ! ... أو نسيت. بدركا بيريخودوف؟ ... من سعى له؟ ومن شملة برعايته؟ ها؟

لقد عانى بيريخودوف من جرّاء ذنب ارتكبه فعلا" ....

تصرّف بأموال الدولة ... ما هي بالنكتة !

يمكنك أن تتصوّر، يا جدي: الفقر، العائلة ...

الفقر، الفقر ... إنه امرؤ سكير، مجازف، هذا كل ما في الأمر !

علّق ميتيا بصوت خافت – إنه يشرب بسبب تعاسته.

بسبب تعاسته ! إذن، ساعده، ما دام قلبك ينطوي على مثل هذه الحماسة، ولا حاجة بك كي تجلس مع سكير في الخمارات – إنه يتكلم كلاما" رائعا"، أترى، يا له من أعجوبة !

إنه لامرؤ حسناً للغاية.

واصل أوفسيانيكوف كلامه موجهاً إياه لزوجه – الجميع عندك حسناًون .... لقد بعثت. له ... حسناً، هنا، أنت تعرفين ...

أومأت تاتيانا إيلينتشنا برأسها.

قال العجوز مرة أخرى – أين تواريت هذه الأيام؟

كنت في المدينة.

على الأغلب، لعبت البليارد وشربت الشاي، طنطنت على القيثارة، ذهبت للدوائر، كتبت الالتماسات في الغرف الخلفية وتغندرت مع ابناء التجار، أو ليس كذلك؟ .... أفصح !

قال ميتا مبتسماً – الأمر كذلك، على ما أظن .... ها، أجل، كدت أنسى إلا قليلاً: إنَّ فونتيكوف أنطون بارفينيتش يدعوك إلى وجبة طعام نهار الأحد.

لن أذهب عند هذا البطين. إنه يقدِّم سمكاً باهظ الثمن، بينما يضع زبداً فاسداً. لا شأن لي معه البتة.

التقيت فيدوسا ميخائيلوفنا أيضاً.

أية فيدوسا؟

من أقنان المَلاّك غاربينتشينكو، التي اشتراها بالمزايدة في ميكولينو. عاشت في موسكو وكانت تعمل خياطة، وتدفع الجزية، إنها تدفع الجزية بانتظام ومقدارها مئة واثنان وثمانون روبلاً ونصف في العام ... وهي تحسن عملها، تلقت طلبات جيدة في موسكو. إستدعاها غاربينتشينكو حالياً، وأبقاها دون أن يحدِّد لها عملاً. إنها صغيرة

لتبتاع حريتها، وأخبرت السيد بذلك، لكنه لم يعلن عن جواب قاطع. أنت يا جدي على معرفة بـغاربينتشينكو، فهل يمكنك أن تقول له كلمة صغيرة؟ ... وستدفع فيدوسا له فدية جيدة.

ليس من نقودك؟ها؟ حسنا"، حسنا"، حسناً، سأقول له، سأقول. ثم واصل العجوز كلامه وقد لاح عدم الرضا على وجهه – فقط لست أدري، أنَّ غاربينتشينكو هذا، ليغفر لي الرب، قد عاش وهو يشتري الكمبيالات ويقرض النقود بالفائدة، ويبتاع الممتلكات بالمزاد ... ومن جاء به إلى ربوعنا؟ أف من هؤلاء الغرباء الوافدين ! لن تدرك ضالّتك معه سريعا"، على أية حال سنرى.

اسع يا جدي.

حسنا" سأسعى، ولكن انتبه أنت، إنتبه إلي ! حسنا"، حسنا"، لا تختلق الأعذار ... لا بأس، انتبه إلى موطئ قدميك فحسب وإلا فلن يفوتك القصاص يا ميتيا، تالله ستهلك لا محالة. وليس بمقدوري إنقاذك ... إنني لست امرءاً متنفذا". حسناً، الآن اذهب في أمان الله. خرج ميتيا.

وذهبت تاتيانا ألينيتشنا في أعقابه.

صاح أوفسيانيكوف في إثرها – اسقيه شايا" حتى يرتوي أيتها الماكرة .... وواصل كلامه، إنه غلام ليس بالأحمق، وروحه خيّرة، ولكنني أخاف عليه ... على أية حال، اعذرني، لشغلك طويلا" بهذه التوافه.

فتح باب المدخل. دخل شخص قصير أشيب في سترة مخملية.

هتف أوفسيانيكوف – وي، فرانتس إيفانيتش ! أهلاً" وسهلاً" ! هل شملك الله برحمته؟

اسمح لي أيها القارئ العزيز، أن أعرِّفك على هذا السيد.

فرانتس إيفانيتش ليجيون (*Le Jeune*) جاري وملاك من أورلوف، لم يحصل بطريقة مألوفة تماماً" على اللقب الفخري: النبيل الروسي. ولد في أورليان من أبوين فرنسيين وجاء كطبّال في جيش نابليون لاحتلال روسيا. سارت الأمور بادئ بدء على ما يرام ودخل هذا الفرنسي موسكو بهام مرفوع. لكن وقع السيد ليجيون (*Le Jeune*)، في طريق العودة وهو شبه متجمد ودون طبل، في أيدي فلاحي سمولينسك.

وضعه فلاحو سمولينسك لليلة في غرفة معمل قماش فارغة، واقتادوه في صباح الغد إلى ثُغرة (١٢) في الجليد قرب القنطرة وراحوا يطلبون من طبال «الجيش العظيم» «*de la grande armée*» مداعبين إياه، أن يحترمهم ويغطس تحت الجليد. لم يوافق السيد ليجيون *M–r Lejeune* على طلبهم وبدأ يُقنع بدوره فلاحي سمولينسك باللهجة الفرنسية أن يتركوه ليذهب إلى أورليان.

«قال – هنالك أيها السادة *messieurs* تحيا أمي، أم رقيقة *Une tendre mère*» لكن الفلاحين لجهلهم على الأرجح، الموقع الجغرافي لمدينة أورليان، استمروا يعرضون عليه رحلة تحت الماء انحذاراً" مع تيار النهير المتعرِّج غنيلوتيركا، وشرعوا يشجعونه بدفعات خفيفة من فقرات عنقه وظهره، وبغتة رنَّ صوت جرس، فرح ليجيون فرحة لا توصف، وسارت على القنطرة زلّاقة ضخمة، وعلى مقعدها العالي الفخم سجادة مبرقشة تجرها ثلاثة من خيول فياتكا (١٣) – جلس

ملّاك بدين مورد يرتدي فروة ذئب في الزلاّقة.

سأل الفلاحين – ما هذا الذي تفعلونه هناك؟

نغطس فرنسيا"، أيها السيد.

قال الملّاك بعدم إكتراث – أها ! وتحول عنهم.

صاح المسكين – مسيو ! *Monsieur ! monsieur !*

نطق معطف الذئب مؤنبا" – أ، أها، مررت على إثني عشر شعبا" في روسيا، وأحرقت موسكو أيها الشيطان اللعين وانتزعت صليب إيفان العظيم (١٤) والآن تصيح مسيو، مسيو، الآن يلوي ذيله ! ينبغي الاقتصاص منه جزاء ما اقترفه من أثام، إمض. يا فيلكا أ!

تحرّكت الخيول للسير.

أضاف الملّاك قائلا" – ها، على أية حال، قف ! ... هيه، أنت يا مسيو، أتعزف الموسيقى؟

أكّد ليجيون قائلا" – أنقذني، أنقذني يا سيدي الحسناً !

–Sauvez moi، Sauvez moi، mon bon monsieur

أنظر يا له من شعب ! لا أحد منهم يعرف الروسية ! الموسيقى، الموسيقى ! هل تعرف الموسيقى؟ أتعرف؟ حسنا"، تكلم ! أفهمت؟ هل تعرف الموسيقى؟ هل تعرف العزف على البيانو؟

فهم ليجيون أخيرا"، ما يرومه الملّاك، وهزّ رأسه علامة الإثبات.

أجل، أيها السيد، أجل، أجل وأنا موسيقار، أعزف على كل الآلات الموجودة ! أجل، أيها السيد .... أنقذني، أيها السيد.

Oui، monsieur، Oui، Oui، Je suis musicien، Joue tous les instruments possibles !

Oui. Monsieur'...

Sauvez moi، monsieur !

حسناً، يا لحسن طالعك، قال الملّاك: اتركوه أيها الفتيان خذوا هذه العشرين كوبيكا" للفودكا.

شكرا" لك أيها السيد، شكرا" . حسنا" أجلسوه.

أجلسوا ليجيون في الزلاقة. تلاحقت أنفاسه من الفرح، بكى إرتعش، ركع وشكر الملّاك والحوذي والفلاحين. كان يرتدي دُراعة خضراء ذات شرائط وردية، بينما كان الجليد في أوج شدته. نظر الملّاك صامتا" إلى أوصاله التي غشتها الزرقة والخدر ولف هذا التعس في فروته واقتاده إلى البيت. هرع الخدم إليهما. قاموا بتدفئة الفرنسي على عجل، أطعموه وألبسوه وذهب به الملّاك إلى بناته ....

قال لهن – ها هو ذا يا بنياتي، لقد وجدتُ لكن معلما" . لقد ألحتن علي: علمنا الموسيقى واللهجة الفرنسية: وهاكنّ فرنسيا" وعازفا" على البيانو ... واصل كلامه مشيرا" إلى بيانو صغير وسخ، كان قد اشتراه من يهودي يتجر بالكولونيا – حسنا" مسيو، أرنا فنك: أجل !

جلس ليجيون على الكرسي وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان: فهو لم يلمس البيانو قط في حياته.

كرَّر الملّاك: اعزف، اعزف.

ضرب المسكين بقنوط على الدساتين، كما لو أنه ينقر على الطبل، عزف كيفما اتّفق .:. «حدثنا فيما بعد قائلا" – لقد ظننت، إن منقذي سيمسك بي من ياقتي ويقذفني خارج البيت» لكن لشد ما كانت دهشة العازف، المرتجل رغما" عنه، كبيرة، حينما تمهل الملّاك قليلا" ثم ربّت على كتفه مستحسنا" عزفه». وقال له: «حسنا"، حسنا"، رأيت أنك تحسن العزف، تعال الآن واسترح». انتقل ليجيون بعد زهاء أسبوعين من هذا الملّاك إلى آخر، كان امرءاً ثريا" ومثقفا"، أعجب به لمرحه ورقة حاشيته، تزوج من ربيبته، انخرط بالوظيفة وأصبح نبيلا" (١٥)، زوج ابنته من لوبيزانيف وهو ملّاك من أوريول إعتزل الخدمة في سلاح الفرسان وكان ينظم الشعر، ثم انتقل هو نفسه للعيش في أوريول.

ذلك هو ليجيون، أو كما نسمِّيه الآن فرانتس إيفانيتش، ومن دخل بحضوري إلى غرفة أوفسيانيكوف، الذي أقام معه علاقات ودية ....

لكن لربما مـلَّ القـارئ المـكـوث معي عند المـالـك المعتوق أوفسيانيكوف، لذلك فالإخلاد إلى الصمت أبلغ.

حواشي الكتاب

نشرت أول قصة من «مذكرات صياد» وهي «خور وكالينتيش» في العدد الأول من مجلة سفريمينك «المعاصر» عام ١٨٤٧ والتي كان يشرف على تحريرها الشاعر نيكراسوف والناقد يلينسكي. حظيت «خور وكالينيتش» بنجاح كبير وإطراء الكتاب والنقاد، مما شجع تورغينيف على التفكير بمواصلة كتابة هذه القصص، ثم ولدت لديه فكرة إصدار كتاب يحتوي مجموعة قصصية. لقد ذكر في رسالة كتبها إلى الناقد ب. ف. أنينكوف في ٤ تشرين الأول ١٨٨٠، إنّ نجاح القصة الأولى أفضت به إلى التفكير بالإستمرار في كتابة قصص مستقاة من حياة الريف و لم يضع نصب عينيه مثل ذلك الهدف عندما شرع في كتابة القصة الأولى. أتمّ وضع اثنتين وعشرين قصة بين ١٨٤٧ – ١٨٥١ وظهرت «نهاية تشرتوبخالوف» ١٨٧٢ و«الطلل الحي» و«قرقعة العجلات !» عام ١٨٧٤. كان يزمع أن يحتوي كتابه على ثلاثين قصة، لكنه لم يكمل كتابة بعضها لعدم إنطوائها على قيمة فنية، حسب ظنه، ولإعتقاده أنّ الرقابة لن تسمح له بنشرها مثل «المصلح الألماني الروسي» «سوء الحظ».

صدرت الطبعة الأولى من «مذكرات صياد» عام ١٨٥٢. وقد أجرى عليها شيئاً" من التعديلات والتغيرات في أسلوبها وحتى في عناوينها. فالاسم السابق لقصة «ليبديان» هو «السوق» و«هاملت من منطقة شيغروفسكي» «الغداء». وثمة قصص لم يضمها الكتاب

بين دفتيه مثل «الأرنب البري» التي أطراها الناقد بيلينسكي، ولم يعثر عليها الباحثون، ويساورهم الاعتقاد أنَّ تورغينيف أعاد كتابتها واحتوت قصة «بيوتر بيتروفيتش كاراتايف» على جزء منها.

ظلَّ تورغينيف يعمل قلمه في صقل أسلوب قصص «مذكرات صياد» لدى إصدار كل طبعة جديدة منها حتى عندما ظهرت الطبعة الأخيرة إبان حياته عام ١٨٨٣. وقد ترجمنا القصص عن المجلد الروسي الذي إعتمد على طبعة عام ١٨٨٣.

خور وكالينيتش

١. نشرت «خور وكالينيتش» كما ذكرنا أعلاه في مجلة «سفر يمينك» الجزء الأول، الكتاب الأول عام ١٨٤٧.

٢. فيرست – مقياس روسي يساوي (١٠٦٠) مترا".

٣. أكيم ناخيموف – (١٧٨٣ – ١٨١٥) كاتب وشاعر هجائي.

٤. بينا – قصة كتبها م – أ. ماركوف عام ١٨٤٣. ولا يحظى كل من ناخيموف وماركوف بدور مهم في مسيرة الأدب الروسي. وقد أراد الكاتب الكشف عن ضيق أفق بولوتيكين بإطرائه لهما.

٥. الكفاس – شراب غير كحولي، يشوب طعمه شيء من الحموضة.

٦. تستعمل عادة الصور المطبوعة في مدينة سوزدل للزينة المألوفة في بيوت الفقراء في روسيا.

٧. ديساتين – مقياس للمساحة في روسيا يعادل ١,٩ هكتار.

٨. إنَّ معنى كلمة خور الروسية ابن عر.س.

٩. الروبل الفضي يعادل ثلاثة روبلات ونصف ورقية في ذلك الحين.

١٠. يُلمح خور إلى الموظفين الذين سيصبح تحت نفوذهم. وكان القيصر نيكولاي الأول قد أصدر مرسوما" عام ١٨٣٧ منع فيه موظفي الدولة من الإبقاء على الشوارب واللحى.

١١. بود – وحدة وزن تبلغ ١٦,٣٨ كيلو غراما".

١٢. بطرس الأكبر – (١٦٧٢ – ١٧٢٥) يعتبر من أشهر قياصرة روسيا، لدوره الكبير في النهضة الروسية القومية. فقد فتح أبواب روسيا أمام رياح التغيرات الوافدة من الغرب. وأدخل إصلاحات اقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية كبيرة في الدولة الروسية مما أدّى إلى تطوير التجارة والصناعة والحياة الثقافية والقضاء على التخلف ورفع مكانة روسيا العسكرية بين الدول المجاورة.

١٣. يكون عادة سطح الموقد كبيرا" في روسيا، يتسع لنوم شخصين أو ثلاثة، وهو أدفأ قسم في البيت.

١٤. البالالايكا – آلة موسيقية وترية، شائعة الاستعمال في الأرياف.

يرمولاي وزوجة الطحان

نشرت في «سفر يمينك» في ١٨٤٧، الجزء الثالث، الكتاب الخامس، إنّ النموذج الحقيقي لشخصية يرمولاي هو الفلاح أفاناسي تيموفيتش أليفانوف، الذي غالبا" ما كان يرافق تورغينيف في القنص. وساعده تورغينيف من الإنعتاق من العبودية وعاش عنده خادما" حرا".

١. عيد الاسم – هو اليوم الذي تحتفل فيه الكنيسة الأرثوذكسية بذكرى أحد القدسين. وجاء في معجم دال أنه «يوم الملّاك الذي يسمى به أحد القديسين». ويحتفل الروس بعيد الشخص المماثل اسمه لاسم قديس من القديسيين، في بيوتهم عند حلول موعد ذلك اليوم. وليس هذا اليوم بعيد ميلاد كما يترجمه البعض.

٢. نشأ تورغينيف في أوريول ولذلك يقول هنا، عندنا في أوريول ويكرّر الشيء نفسه في قصص أخرى.

مياه توت الأرض

نشرت في «سفريمينك» عام ١٨٤٨، الجزء السابع. الكتاب الثاني.

١. مياه توت الأرض، اسم ينبوع يقوم تورغينيف بوصفه في هذه القصة. وما زال موجودا" حتى الآن ويصب في نهر إيستا.

٢. موخايار – قماش مصنوع من القطن الممزوج بالصوف والحرير، كان ينتج في الأزمان السالفة.

٣. أماكن تزرع فيها أشجار الفاكهة والنباتات التي تحتاج للحرارة، وتكون مسقوفة عادة لحمايتها من البرد.

٤. ثمة عادة روسية شعبية وهي تقديم الخبز والملح للدلالة على حسن الضيافة والكرم.

٥. يتبادل المسيحيون التحايا والبيض المصبوغ بألوان مختلفة في عيد الفصح.

٦. حكمت كاترينا الثانية روسيا يسن ١٧٦٢ – ١٧٩٦. وتعتبر فترة حكمها بمثابة العصر الذهبي للنبلاء.

٧. يقدم الزمام في القبعة تعبيراً" عن الإحترام والتقدير.

حسناً المنطقة

نشرت في «سفر يمينك» عام ١٨٤٨. الجزء السابع. الكتاب الثاني. وكان عنوانها في البداية «الأسرة المسكينة».

جاري رايلوف

نشرت في «سفر يمينك» عام ١٨٤٧. الجزء الثالث. الكتاب الخامس.

١. يخاطب الشخص بصيغة الجمع تعبيراً" عن الاحترام وتستعمل لمخاطبة الكبار والغرباء أيضاً"، أما الصغار ومن تربطهم أواصر الود والألفة فالكلام بينهم يكون بصيغة المفرد.

٢. ورد في حكاية شعبية أنَّ العنزة عقدت صلات صداقة مع الدب وأخذت ترقص وتغني معه.

المالك المعتوق أوفسيانيكوف

١. المالك المعتوق ينتمي إلى طائفة من الفلاحين التابعين للدولة، لهم الحق في إمتلاك قطع صغيرة من الأرض وبضعة أقنان. وهم ملزمون بدفع الجزية شأنهم شأن الأقنان في هذا المجال.

٢. كريلوف – (١٧٦٨ – ١٨٤٤) شاعر روسي اشتهر بحكاياته الشعرية الخرافية.

٣. البويار – تطلق هذه التسمية على الطبقة الإقطاعية العليا في كل من روسيا ورومانيا. وقد سادت في روسيا منذ القرن العاشر، عندما لم تكن روسيا موحدة في دولة مركزية وما زالت موزعة

إلى أمارات ودويلات. يتكوّن البويار ي الأصل من فئتين: «الناس الممتازون» أو الرؤساء الذين يمثلون المشاعة السلافية و«رجال» الإمارات المنتمين إلى بلاط الأمراء. زال هذا الإختلاف تدريجا" مع تطور النظام الإقطاعي وأصبح البويار طبقة واحدة، وأصبح دورها عائقا" لتطور روسيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لأنها قاومت إقامة دولة روسية مركزية موحدة. حارب القيصر بطرس الأكبر في القرن السابع عشر هذه الطبقة وألغى تسمية البويار.

٤. الفيرياز – نوع من الملابس الطويلة الأكمام، دون ياقة يرتديها الرجال عادة تحت القفطان.

٥. يقصد الفلاح.

٦. عربة تجرها ثلاثة خيول ولذلك تسمى «الثلاثية» إذا ترجمنا كلمة ترويكا إلى العربية حرفيا".

٧. فيلموجا – يسمى فيلموجا الأرستقراطيين الذين يمتازون بأصلهم العريق وسعة الجاه والثراء وهم عادة مثقفون ويعرفون اللغات الأحنبية وبعضهم من رجال البلاط والدولة. وقد كانت تستعمل هذه التسمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٨. الكونت أورلون تشيمينسكي أخد رجال الدولة المعروفين في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية. جنرال محنك إستطاع أن يهزم. الأسطول التركي عام ١٧٧٠ وهو من كبار الأرستقراطيين الأثرياء. الوصف الذي إنطوت عليه القصة مماثل لشخصيته الحقيقية.

٩. يعني الجامعات.

١٠. فيرشوك – قياس روسي يبلغ طوله ١٣,٤ إنجا".

١١. يقصد خمسة روبلات، فأحيانا" يسمون الورقة المالية بلونها لا بعدد الروبلات التي تحتويها.

١٢. يتجمد سطح الأنهار أو البحيرات في شتاء روسيا القارس ويمكن السير عليه ويعملون أحيانا" فتحة فيه لصيد السمك أو لأغراض أخرى.

١٣. صنف من الخيول تشتهر محافظة فياتكا بتربيته.

١٤. إنّ جرس إيفان العظيم أطول جرس في الكرملين في موسكو. وقمته مطلية بالذهب، وقد ظنّ الفرنسيون أنها ذهب حقيقي.

١٥. إذا وصل موظفو الدولة في روسيا القيصرية إلى رتبة معينة في سلم الوظيفة، فيمكن أن يمنحوا لقب النبيل.

هذه ٧ قصص من كتاب مذكرات صياد الذي صدر عن دار المدى

المحتويات

تمهيـــد ٥

خور وكالينتش..... ١٣

يرمولاي وزوجة الطحان..... ٣٣

مياه توت الأرض..... ٥٢

طبيب المنطقة ٦٦

جاري راديلوف..... ٧٩

المالك المعتوق ٩١

أوفسيانيكوف ٩١

حواشي الكتاب..... ١١٧

الكتاب للجميع

هكـذا نريده؛ إيماناً بكونـه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

واذ شـرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشـرت خـلال العقود الماضية وتعذر وصولهـا إلى قارئ اليوم، فإنما نهـدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القـارئ من الوصول إلى الينابيـع الفكريـة ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبـة ذات مساحة منفتحة على مختلـف فـروع المعرفة بكلفـة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ.

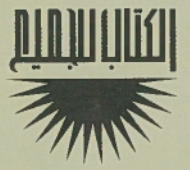

سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مـع

السـفير

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون